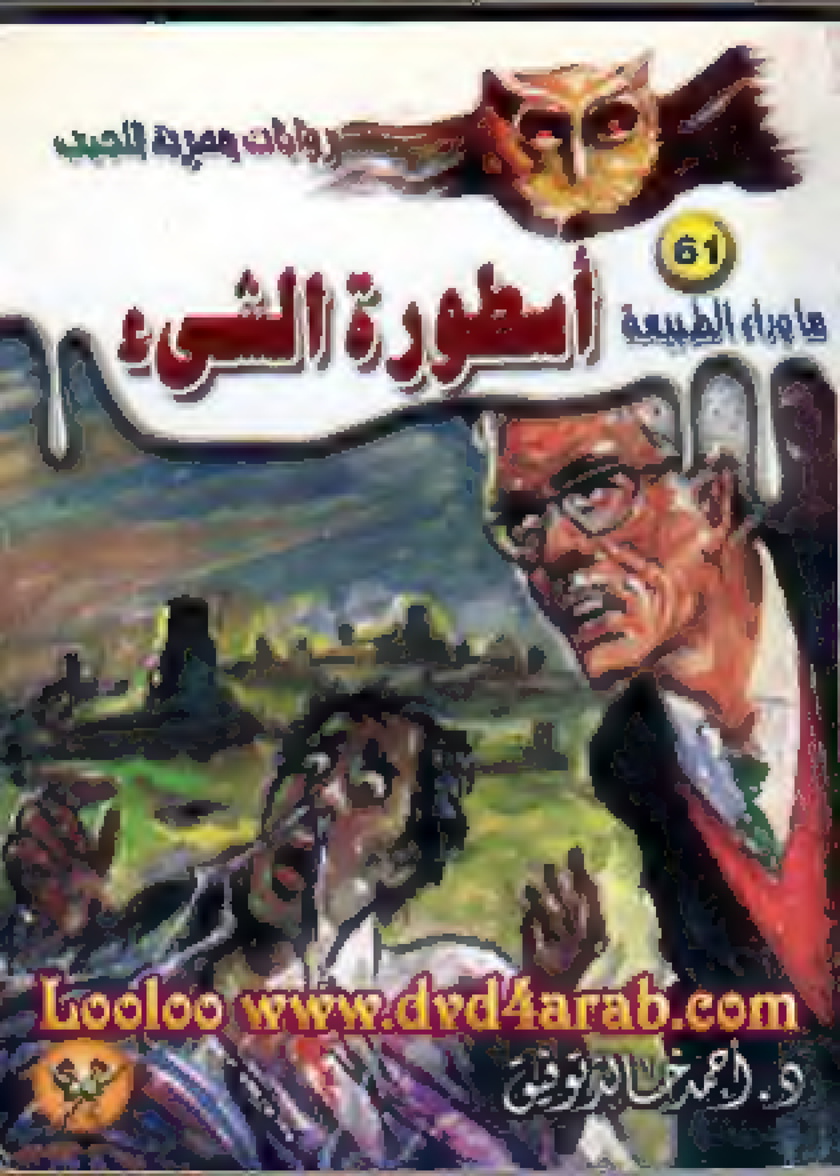
روايات مصرية للجيب
61
ما وراء الطبيعة
أسطورة الشيء
Looloo www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

أحيانًا حينما ينتصف المساء، ويصمت المتأخرون، ويعزف الليل لحنه العتيد الذي لا يسمعه سواي، أجلس وحيدًا في الشرفة.. وأقول لنفسي: لم تكن حياتك سهلة إلى الحد الذي تتظاهر به..

لقد عشت خبرات ورأيت بلادًا عاش سكانها وماتوا دون أن يعرفوها أو يحلموا بها..

إن حياتك تكفي سبعين شخصًا، فلماذا تشعر هذه الغصة في حلقك؟

السبب - بلا مواربة - هو أنني أخاف القبر.. أخاف الظلمة والبرد والوحدة.. لكن القبر لم يعد بعيدًا على الإطلاق إن هي إلا خطوة واحدة، وأعرف ما عرفه الملايين ممن سبقوني، وعلي أن أتعايش - أو أتماوت - مع هذه الحقيقة..

السبب الثاني - بلا مواربة أيضًا - أنني تمنيت دومًا لو تقاسمت حياة الآخرين.. أفرح لما يفرحون به وأحزن لما يحزنون له.. لكني كنت دومًا الاستثناء الذي يثبت القاعدة.. لم أتحمل ما يتحملون في أي يوم من حياتي.. هم الذين يتزوجون

ويلعبون ويملئون الدنيا صخبًا ويعزّون بعضهم ثم يموتون ..

لقد خُلقت لعالم خاص بي .. ولم يؤنس وحشتي وتفردي إلا بعض أصدقاء ودودين .. فقط هم غريبو الأطوار نوعًا — منهم من ينام ليله في تابوت ، ومن يعوي عندما يكتمل القمر ، ومن يسيل كالماء لينساب من تحت الأبواب ، ومن يتآكل حيًا ..

أعرفهم واحدًا واحدًا .. كما يعرف الأب العجوز أبناءه ..

حسن ..

كفانا استطرادًا .. أعتقد أنني لن أشعر بتحسن ما لم أحك قصة أخرى ..

هل حكيت لكم أسطورة الشيء ؟ لا ؟ غريب هذا .. إنها جيدة وأعتقد أنها ستروق لكم ..

الطقس يبرد باستمرار .. لم أعد أرحب بالبرد كما كنت أفعل في الماضي ..

هناك سبب آخر مهم هو هذا الخط الأحمر الباهت في الأفق .. ربما لا ترونه لكن عيني المدربة — برغم وهنها — تراه

جيدًا ، وأنا أعرف أفضل من سواي معنى هذا الخط الباهت .. ربما أحكي لكم قصته يومًا ما ، لكن يكفي في الوقت الحالي أن أقول إن الدخول من الشرفة سياسة حكيمة ..

والآن — لحظة حتى أغلق باب الشرفة — لنسمع قصة الشيء ..

مرعبة ؟ لا أدري .. أنا متأكد من أنها شنيعة ، لكن الفوارق بين الرعب والشناعة والهول والتوجس والتقزز كبيرة جدًا .. وبرغم هذا يخلط الجميع بين هذه المعاني ..

دعونا نصمت .. كفانا كلامًا عن القصة ولنسمع القصة نفسها ..

* * *

1 ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

صوت من البادية :

ـ « إنه ما زال يتحرك .. »

صوت في الظلام :

ـ « هات فأسك وعاوني .. »

صوت من البادية :

ـ « هلموا ! إنه لن يقهرنا جميعًا .. »

* * *

لأسباب يطول شرحها ، وجد (بكر الشاذلي) نفسه يركض في هذا الممر الطويل بين الأشجار ..

إنه الليل .. لك أن تتوقع هذا .. إنه القمر .. هذا مؤكد .. صوت الرجال آت من الخلف .. وهم بدورهم يحاولون ألا يحدثوا صخبًا ، لكن مهما كتم عشرة رجال أصواتهم فإن الضوضاء آتية لا ريب ..

كان يركض .. محاولاً ألا ينظر إلى الوراء ..

صف الأشجار يتدافع يمينًا ويسارًا قادمًا من عالم خرافي لا تنفد أشجاره .. والعشب الندي تحت قدميه يحدث صوتًا غريبًا .. أنت تعرف ملمس ورائحة العشب الندي في ليل الصيف ..

القمر مكتمل .. هذه هي القاعدة .. حين تكون مطاردًا ـ بفتح الراء ـ يسطع القمر كأنما هو يضيء خشبة مسرح ، بينما لو كنت مطاردًا ـ بكسر الراء ـ يتوارى القمر خلف السحب أو ينسى أنه موجود أصلاً ..

الألم يزحف ببطء من وراء عظمة القص ، ليشع في الكتف اليسرى والذراع اليسرى .. والسبب معروف .. إن (بكر) في الخامسة والأربعين .. السن التي تكف فيها الشرايين التاجية عن أداء عملها كما يجب .. لقد سدت مجراها آلاف الكيلوجرامات من الدهن والتبغ والهموم وباقي الإحباط ..

السبب الثاني هو أن الدم في عروقه لم يعد كافيًا .. أنت ترى معي الدم الذي يحتشد على القميص .. لقد صار مبتلاً يلتصق بصدره ، لكنه لم يلحظ ذلك بعد .. كل المصابين بجرح خطير لا يلاحظون ذلك على الأرجح ..

لقد بدأ يشعر بتلك الشعور العجيب .. رأسه أخف من اللازم ، وثمة ثقل في أفكاره .. الساقان اللينتان العصيتان على السيطرة ..

هذا الطريق .. (عاطف) .. سندات .. أشجار .. الرجل .. مخرج .. قادمون .. من هم القادمون ؟ لقد نسي .. لكن .. و(عاطف) أيضاً .. ما دخل (عاطف) في الموضوع ؟ لا يذكر .. لكنه يواصل الركض ..

وخطر له خاطر مريع ..

هل أنا أموت ؟

استبعد الفكرة .. لقد قال له أبوه يوماً ما إن المحتضر يرى حياته كلها كشريط سينمائي لحظة الاحتضار ، وهو لا يرى شيئاً .. لم يبدأ العرض بعد .. كما قال له أبوه إن ..

ماذا قال ؟ ما دخل أبيه في الأمر ؟

فقط هناك بقعة سوداء في مركز الإبصار ، وهناك أطراف صفراء باهتة ..

البقعة تكبر ..

عرق بارد على جبينه .. على الأقل يشعر بهذا ..

هل أنا أموت ؟

لا .. على الأرجح لا .. لكن الاحتمال الأسوأ أن تفقد وعيك ، وهذا لا يختلف عن الموت كثيراً ..

لن تنتهي هذه الأشجار ؟ كل أشجار مصر والوطن العربي .. كل أشجار إفريقيا والأمريكتين .. أشجار سهول (التايجا) وغابات (الألب) .. أشجار الهند والسند .. كلها ترصصت في هذا الدرب الذي لا نهاية له ..

صوت الرجال يدنو أكثر ..

عشرة رجال يطاردون رجلاً جريحاً على وشك فقدان الوعي ..

لا يزيد الأمر على لعبة أطفال .. مسألة وقت كما يقولون ..

وهنا خطرت في ذهنه المليء بالغيوم فكرة واحدة .. من الحمق أن تظل في هذا الطريق للأبد .. لتكن لك براعة الثعلب ولتزل حسن تصرفه ..

ثمة فرجة بين الأشجار .. لم لا ؟

* * *

هنا يجب أن نقول إن (بكر) لم يلحظ شيئاً مهماً ..

لماذا لم يلحق به الرجال وقد رأوه ؟ لماذا توقفوا حيث هم ؟

لماذا تبلدوا النظرات وتصلبوا في أماكنهم ؟

أشياء كهذه تحدد مصيرك فيما بعد ، لكنك لا تتفطن لها في الوقت المناسب .. للإنصاف نقول إنه لم يكن يملك أية قدرة على أن يفطن لها في الوقت المناسب ..

لو كان (بكر) بكامل وعيه لتساءل ..

لربما شعر بالقلق ..

لربما أصابه التوتر .. لربما طار قلبه شعاعًا لو رأى ما حدث بعد هذا ..

لقد فر الرجال في الاتجاه المعاكس ، وهم لا ينظرون إلى الوراء .

أشياء كهذه تثير الرعب لو فكرت فيها ، لكن (بكر) - لحسن حظه - لم يكن محتفظًا بكامل وعيه ..

* * *

اندفع بين شجرتين إلى جانب الطريق ..

هنا لم تعد هناك أرض تحت قدميه ..

كان هناك منحدرًا وعرًا .. وانزلقت قدمه - ومع الظلام سقط

جسده .. تدحرج عدة مرات ، وكما هي العادة مزقت الأشواك وجهه ورقبته .. لابد أن هناك الكثير من الوحل ، ونباتات عجيبة مزقته ، على كل حال لم يعد من داع لمعرفة اسمها ..

وفي النهاية تكوم على أرض صلبة .. وراح صدره يعلو ويهبط ..

دامت الإغماءة ثلاث دقائق ، لكنه شعر كأنها دهر ..

فقط أفاق لحظات ، وكانت هذه اللحظات كافية كي يتبين أين هو ..

المقابر الساكنة ترقد ناعسة في ضوء القمر .. عشرات الشواهد تنتشر هنا وهناك .. كلمات بخط ساذج بالطباشير على كل شاهد .. على بعد أمتار قبر صنع شاهده من طين لبن ، وقد كتب عليه بتلك اليد الطفولية : كل نفس ذائقة الموت - قبر المرحوم (عبد السلام أحمد شرشيرة) - توفي يوم 10 شوال 1382 هجرية .. لا يعرف الاسم لكنه يبدو مناسبًا لمتوفى بشدة .. هناك أسماء وصور خلقت كي يموت أصحابها ، حتى لتشعر بأنهم لم يعيشوا يومًا واحدًا ..

هنا قبر .. هناك قبر .. عشرات المقابر تمتد على مرمى البصر ..

لكن لو كان (بكر) واعيًا لما يدور حوله ، لألقى سؤالاً مهمًا : لماذا تركت المساحة التي سقط فيها خالية من المقابر ؟ بالأحرى لم يكن فيها إلا قبر واحد ..

كان هناك كلب من كلاب المقابر .. كلها أسود مشعث كئيب هو خليط من ذئب تعس وضبع .. هذا الكلب يجوب المكان في عجلة بحثًا عن فريسة ما .. فجأة يتوقف .. يرى المساحة الخالية التي سقط فيها (بكر) .. يتصلب .. ينتصب الشعر على جسده ، يزوم في غضب .. أم في رعب ؟ .. ثم يتراجع وهو لا يبعد عينيه المذعورتين ..

(بكر) لم ير هذا الكلب ، ولو رآه لارتجف رعبًا .. لا من الكلب بل من رعب الكلب ..

لقد رفع (بكر) رأسه .. وعرف أين هو .. لكن المقابر في هذه المرة لم توح بالموت ، بل أوحت له بالنجاة .. إنه بعيد عن مطارديه .. سوف يستجمع قواه .. فقط يريد دقائق أخرى من ال...

من السبات حيث هو ..

* * *

السماء كانت تسيل بلا توقف ..

لو تركه وشأنه حيث هو لقطفت الحياة من عروقه خلال ساعتين ..

كانت الطعنة نافذة ، وقد هتكت الرئة اليسرى .. لكن (بكر) لا يعرف هذا لحسن حظه ..

الماء بدأ يتجمع على التربة .. بدأت تتخلل طبقات التربة ..

ثم راحت قطرات من السائل الداكن تصل إلى الأعماق ..

إلى الشيء الراقد في القبر ..

من بين كل المواضع في المقبرة ، ثمة أحمق لم يختر سوى هذا المكان كي يفقد الوعي فيه .. ومن بين كل النشاطات الفسيولوجية لم يجد نشاطًا أفضل من النزف ..

يمكننا الآن أن نرى بعين الخيال كيف بدأ ذلك الشيء يتحرك .. لقد شعر بالمذاق المميز للصدأ قليلاً .. عرفه على الفور بعد كل هذه الأعوام .. بدأ يفور .. يرتج ..

الآن هناك أشياء تشبه الأهداب تخرج منه .. تتسلل بين ثنيات التربة .. لا أعرف الكثير عن ميكانيكا التربة ، لكن هناك نوعًا من الخلخلة يتم بقوة ..

تشق الأهداب طريقها إلى السطح ..

لقد شعر بقرب الجسد ..

الآن لم تعد قوة على الأرض قادرة على إنقاذ هذا الحالم الذي لا يعرف ما يحل به ..

هي ذي الأهداب استطالت حتى صارت أقرب إلى مسك الأخطبوط .. إنها تتسلل .. تتحسس الجسد الراقد فوق الفراش .. تشعر به .. تتشمم قطرات الدم التي تبلل التربة، ثم تتحسس الوجه .. إنها تفتش عن هدف محدد .. فتحتا الأنف .. أين هما ؟

ها هي ذي الأهداب قد وجدت طريقها إلى الأنف .. إنها تخترقه ..

لو رأيت المشهد فلن تفهمه .. فقط سيخيل إليك أن فتحتي أنف الرجل تتسعان وكأن شيئًا يخرج منهما سائل هلامي غريب — الحقيقة أننا نتحدث عن الدخول لا الخروج ..

الآن لا بد أن الأهداب اخترقت العظام الشبيهة بالمصفاة ethmoid التي تفصل الأنف عن قاع المخ — ما الذي يجري هناك ؟ لا أحد يعرف ..

ليس بيدنا أن نفعل شيئًا .. إن الرجل لن يسمع صراخنا .. لهذا نتراجع بالكاميرا — على طريقة (هتشكوك Hitchcock) الشهيرة — إلى الوراء .. إلى الوراء ..

إلى مكان آمن بعيدًا عن هذا كله —

ولننتظر ...

* * *

2ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

صوت من الظلام :

ـ «إنه يتحرك من جديد .. أي شيطان هذا ؟»

صوت مبحوح :

ـ «فلنحاول مرة أخرى .. لن نفقد إلا حياتنا ..»

صوت من البداية :

ـ «قد نفقد ما هو أكثر ..»

* * *

(بكر) يبدأ يومًا جديدًا ..

حينما يدق جرس المنبه، وحينما ينقطع خيط الحلم بمقص الرقيب، وحينما يخترق الرنين خلايا مخك لينفض خلية خلية، عندها تتمنى لو أنك تحلم .. لكنها الحقيقة ..

يبقى في الفراش بضع دقائق .. تدخل زوجته لتكرر من جديد :

ـ «(بكر)! أنت طلبت ألا أتركك نائمًا ..»

لأنها تعرف أنه يدق المنبه أكثر من خمس مرات، بعد ما يعيد ضبطه في كل مرة .. لهذا تتحول مواعيد الثامنة صباحًا إلى العاشرة ..

لماذا يبدو صوتها مختلفًا غريبًا في هذه الساعة من الصباح ؟ لقد قاطعت حلمًا ثانيًا ..

ينهض .. يتربع في الفراش ويتأمل أصابع قدميه ، ثم يترنح نحو الحمام ..

يلمس الوجه بوجهه في المرآة .. ذات الوجه ولم يستجد شيء .. إنه في الخامسة والأربعين ، لكن وجهه من الطراز الذي لا يشيخ أبدًا .. ما زالت تلك النظرة الصبيانية العابثة للاعبين عابثين راغبين في المرح .. صحيح أن مقدمة شعره تتراجع للخلف أكثر فأكثر ، وأن أثر العام الماضي ترك علامات لا تخطئها العين ، لكن وجهه في النهاية هو وجهه .. سوف تندهش لو قلت لك إنه في هذه السن ..

الزوجة تتأهب للخروج .. تحمل حذاءيها لتلبسهما على الباب كما اعتادت ..

تقف على باب الحمام ، وتقول له متعجلة :

«سأعود في الثانية لو وجدت مواصلات .. لا تنس (دينا) في المدرسة .. سلام ..»

ويتساءل في سرها : ما الذي يرغم إنسانًا على الاستيقاظ في ساعة مبكرة كهذه إذا لم يكن مرتبطًا بعمل ؟ لو كان الأمر بيدها لظلت في الفراش حتى منتصف النهار ، لكن من المجنون الذي يزعم أنه فهم (بكر) ؟

يسمع باب الشقة ينفتح ثم يغلق ..

هو الآن وحده ..

روتين الحياة المعتاد منذ عام .. منذ طُرد من عمله أو تركه .. منذ أقيل أو استقال .. لا يهم .. هذه ألفاظ تختارها كي لا يبدو موقفًا محرجًا أمام الآخرين .. كل ما يعرفه هو أن الأوضاع تبدلت من حينها .. أكثر الوقت هو في البيت وهي في العمل .. ويقف أمام المرآة وينزع منامته ..

الجرح ما زال على صدره .. ندبة قبيحة لا يملك أن يتأملها مستريحًا ، ليست طويلة لكنها بالتأكيد غائرة .. وهو لا يعرف لماذا ولا كيف نشأت ..

ربما في جسده قدرات يجهل عنها كل شيء عنها .. إنه يسمع عن نجمة البحر التي ينمو لها طرف لتستعيضه ، وعن السحلية التي تستنبت ذيلاً جديدًا .. فهل لديه نوع من هذه القدرات الكامنة ؟

* * *

الظلام والبرد .. رباه ! كل هذا الظلام ، كل هذا البرد !

كيف جئت هنا ؟ ماذا ألمّ بي ؟ ماذا حدث ؟

ثم أدرك أنه وسط المقابر ، ومن جديد رأى شاهد القبر في ضوء القمر ، وعليه الكتابة بخط طغرائي (عبد السلام أحمد شرشيرة) ـ توفي يوم 16 شوال 1382 هجرية .. استعاد الشعور اللئيم حين يرى ذات اللقطة في حلقة الفيلم الثانية .. لقد جئت في هذا الجزء ..

الآن وقد عرف أين هو، راح يتحسس قميصه .. دماء! دماء رطبة .. إنه جريح؟ كيف لم يفطن لهذا؟

لكن الجرح لا ينزف .. لا يوجد جرح على الإطلاق تحت القميص، فهل هذا الدم دمه أم لا؟

المقابر! الآن صار على استعداد لأن يشعر بالخوف .. كان الخوف من الموتى ترفًا لا يملكه منذ ساعات، لكنه الآن من حقه .. أن يجد المرء نفسه وحيدًا في المقابر ليلًا .. ليس هذا أجمل شعور في العالم ..

نهض وحاول أن يدور حول الساحة المربعة ..

يبتعد .. ينظر إلى الأفق ..

هذا اللون الأرجواني هناك .. ليس هذا هو الشفق القطبي Aurora لسبب بسيط هو أننا لسنا في (النرويج) .. هذا هو الشروق، والنهار آت لا ريب فيه ..

يبدو أن محنته قد انتهت ..

فيما بعد سوف يلقي أسئلة وسوف يعرف السبب في مجيئه هنا وما جرى له؛ أما الآن فعليه أن ينعم بالشعور بالنور ودفء الشمس، وقد كاد ينساهما ..

* * *

على مائدة الطعام جلس يتناول إفطاره ..

إنه ذلك النهم غير المفهوم .. يأكل كأنما هذه آخر أكلة في حياته .. ولسبب ما لم يزدد في الوزن قط .. زوجته لاحظت هذا أكثر من مرة، وفسرت الأمر في سرها بأنه اضطراب عصبي لرجل يلعب دور العاطل برغم إرادته ..

وكانت زوجته (عفاف) نموذجًا فريدًا من نوعه .. امرأة تشعر طيلة الوقت بأن هناك خدعة ما .. الآخرون يحاولون خداعها .. كل الباعة لصوص وكل طارقي الباب نصابون .. وكل الأفلام مشبوهة وكل المسلسلات تافهة، وكل الكتب لا تقول شيئًا .. كل الزوجات الأخريات ساقطات وكل الأزواج خائنون .. كل أصدقائه أوغاد وكل صديقاتها ثرثارات .. الخلاصة أنها وصلت إلى السلام بشكل تام مع كل غموض الكون .. كل شيء ليس ما يبدو أو تكمن وراءه خدعة ما ..

وكانت عبارتها الخالدة هي:

- «لم يعد الناس كما كانوا ..»

لا نعرف أبدًا متى كان الناس (كما كانوا) .. فلابد أنها كانت تعيش في العصر الباليوزوي Paleozoic، حين كان الناس على خلق ولا يخدعون أحدًا .. لسبب بسيط هو أنه لم يكن هناك ناس في ذلك العصر ..

لهذا - حينما لاحظت نهمه الشديد للطعام - ظلت تنظر له في شك باحثة عن خدعة ما .. ظلت في ريبة

- .. أراهن على ذلك ..

وبحثت عن تهمة معينة تلصقها به فلم تجد .. هل النهم في الطعام تهمة يعاقب عليها القانون ؟ هكذا تساءلت .. ثم قررت أن الأمر لا يتعدى اضطرابًا نفسيًا ما

أما هو فلم يكن يعرف جوابًا لهذا .. لكن الطعام أصبح لحياته لذة يومية لا شك فيها .. قصة حب تعلقت بهمه وكل طبق فول وكل بيضة مسلوقة وكل قطعة لحم يجدها أمامه . صحيح أن موجة الطعام - بعد عمر من البطالة - سوف تنتهي .. لكن كان لديه في المصرف رصيد لا بأس به . وقد صمم على ألا تتجاوز مصروفات البيت مائة جنيه شهريًا بأي ثمن . وهو مبلغ جسيم بمقاييس تلك الأيام معنى هذا أن أمامه وقتًا لا بأس به قبل أن تنفد مدخراته . وهي لحظة يحاول عدم التفكير فيها

لقد قسم في ذهنه ما لديه في المصرف إلى حزم تتكون كل حزمة من مائة جنيه . ورسمها على شكل خطوط على جدار الشرفة .. في نهاية كل شهر كان يدخل الشرفة ويشطب أحد الخطوط .. محاولا ألا يعد الخطوط الباقية .

هكذا فتح الجريدة . وراح يجري بعينيه على العناوين ، بينما هو لا يكف عن تقليب طبق الفول بالقطعة التي بين أصابعه . « كل الجرائد .. أي شيء جديد » .. قالها (سرور قلبي) وهو قول صادق فعلا

من أين جاء بالمال ؟ لا يفكر ولا يعرف .. لم يكن ثريًا ولم يدخر مليمًا من راتبه في شبابه فتأسى حين كان يحصل عليها .. لكنه فطن لهذا إلى أن لديه حسابًا في المصرف وأنه الشيء الوحيد الذي يجعله لا يهتم علاقة على زوجته . ما زالت تطبخ اللحم وأرغفة الخبز على المائدة من جيبه هو .. بينما راتبها لا يكفي إلا مواصلاتها

من العسير أن تبدأ كل شيء من الصفر في سن الخامسة والأربعين . لكنها الحقيقة

ولت حماسة الشباب وقوة الشباب .. ولم تأت حكمة الكهولة ولا استقرار العمر

رباه ! إنه في مأزق

* * *

لماذا لم يجد عملا طيلة هذه الفترة ؟

الأمر يندرج تحت مقولتين شهيرتين

الأولى هي بيت شعر عبقري شرح فيه شاعر عربي قبيح

الوجه السبب الذي جعله يحجم عن الزواج حتى تقدم به السن (مثل السلسل فيليبيني .. ولما الفتاح فاليرك) .. شركات التأمين القوية عميلة السمعة لا تقبل به، وشركات التأمين الحقيرة ذات السمعة الملوثة لا يقبل هو بها بعد هذا العمر

المقولة الثانية للشهير (جروتشو ماركس Groucho Marx) الممثل الكوميدي الأمريكي الشهير: أنا أرفض الانضمام لجمعية تقبل مثلي عضوًا فيها؟

هو ليس بارعًا وليس حسن السمعة إلى هذا الحد، وطرده من الشركة لا يخلو من الهمسات المسيئة لشرفه المالي .. شركة التأمين التي تقبله مع هذه السمعة - لا توجد أسرار في عالم شركات التأمين - لن تكون أبدًا شركة راقية أو محترمة أو ناجحة .. وهو يأبى أن يعمل في شركة غير راقية أو محترمة أو ناجحة!

الخلاصة .. سيبقى كما هو حتى إشعار آخر

يحاول جرب بعض النشاطات في العام الماضي .. تجارة الماشية .. تجارة (الشنطة) التي كانت رائجة في السبعينات .. مشروع صغير للشطائر .. وفي النهاية تعلم الدرس غاليًا .. هذه نشاطات لا يمكن تعلمها متأخرًا، ولا توجد مدارس تعلمها .. إنها كالشعر والموسيقا .. يجب أن تولد تاجرًا وإلا لن تكونه أبدًا

الخلاصة .. سيبقى كما هو حتى إشعار آخر

في هذه اللحظة شعر - وهو يلوك لقمة جافة بعض الشيء - بألم عنيف .. مد يده إلى فمه وتحسس .. يقول الإنجليز: السماء لا تمطر أبدًا بل تصب السيول .. ويقول العرب: المصائب لا تأتي فرادى .. لقد فقد سنًا مهمة من أسنانه

فتح كفه وراح ينظر إلى السن الذهبية .. وتذكر الطقوس التي كانت أمه تمارسها في طفولته في ظروف مماثلة .. و(يا شمس يا شموسة .. خدي سنة الـ ...) وما بعد (الـ ...) هذه كان يتوقف على مزاج أمه .. أحيانًا كان هو (الحمار) وأحيانًا (الثور) وأحيانًا (الجاموسة) ..

لسبب ما شعر بحنين طفولي دفعه إلى أن ينهض ويتجه إلى الحمام .. الصيدلية الضئيلة التي تحولت إلى أي شيء لا علاقة له بالدواء .. مشط .. كريم .. يحوي خيوطًا ودبابيس وجوارب قديمة وأنبوب معجون أسنان فارغة .. فتح علبة فارغة وأسقط فيها السن، وتأمل وجهه في المرآة وابتسم

* * *

3 ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

يجب أن نكون عادلين

قد يحلو لبعضكم أن يعتقد أن (بكر) كان يعرف الحقيقة من وقت طويل.. لكن الحقيقة هي أنه لم يتبين الأمر إلا بعد شهر وبعد ما قلناه منذ أكثر

إن فلانًا سيلقى في شهر واحد أمرًا غريبًا.. ولقد كان يقوم في تلك الليلة وهو يفكر في الأمر

إنه يقف هناك وحيدًا.. هناك تابوت مفتوح، وهناك من يقول له أن يرقد فيه.. من يقول ؟ لا يعرف لكنه يفهم الأمر جيدًا.. يتمدد في التابوت لكنه يشعر خوفًا.. هناك جراحة غريبة تجري على جسده.. جراحة في تابوت ؟ لا يعرف السبب.. يبدو أن هذا يجعل الأمور أسهل في حالة الفشل لن يكون هناك نقل إلى المشرحة وإجراءات معقدة (سعد زغلول) بشربه الشهير وطربوشه يقف هناك ويقول شيئًا عن الجراحات الفاشلة.. (مورتيمر ...) يدقق في ضيق ومن بعد تتحرك الملعقة (المعروسة) حشفة لمالكه (المرزوق) إلى منقاره.. فلا يعترض (بشربه وقيم) على شيء.. هذا غريب..

يخرجون شيئًا غريبًا من بطنه.. شيء ينبض.. يصحب له يصرخ.. يحاول أن يمنعهم لكنهم يطلقون التابوت.. ويلهم لا الجراحة قد انتهت وأنه مات.. الظلام يسود المكان

ثم .. صحا غارقًا في العرق.. بعض قوله حتى فهم أنه هنا وأن هذا كابوس.. لم يكن خبيرًا في تفسير الأحلام، لكنه عرف على الفور أن الكابوس يفصح عن شيئين: رعب التحلل الجسدي.. لقد مر وهو يفكر في مسألة الطلورة؟ ورعب السرطان.. هذا الذي أخرجوه من جسده لا يمكن أن يرمز لشيء إلا للسرطان.

- «هل أنت بخير ؟»

ألقتها الزوجة بصوت ناعس دون أن تستدير في رقدتها ودون أن ترفع رأسها عن الوسادة، فقال لاهثًا:

- «كابوس..»

- «نصحتك ألا تأكل لحم الضأن في العشاء.. هل سمعت من قبل عن رجل عاقل يأكل الضأن في العشاء في أي وقت ؟»

الحقيقة أن العشاء التقليدي المكون من الجبن أو البيض لم يعد يكفي لإشباع جوعه.. إن احتياجاته الغذائية تتزايد بلا توقف.. وفي هذه الليلة بحث عن شيء مناسب في

الثلاجة توجد بقايا الغداء.. صينية من البطاطس مع لحم الضأن. لقد استمتع بوقته، لكنه يدفع الثمن غاليًا كأية لذة في الحياة!

ينهض من الفراش شاعرًا بذلك الشعور المعتاد.. مثانة مليئة وعطش قاتل وعرق يتخلل كل شيء..

- «إلى أين؟»

- «الحمام.. المطبخ.. ربما الشرفة..»

دخل الحمام ليتخلص من العذاب الوقتي، ثم اتجه إلى الحوض يغسل وجهه وهو يتأمله في المرآة!

هل خطر له أن يفتح الصيدلية فيلقي نظرة على المسكن؟ لقد ألقى القرص الأخير دون أن ينظر داخل العلبة، وقد خطر له أن ينظر إلى هذه الأجزاء التي فقدها للأبد

غريب هذا!

إن السن الطبيعية التي فقدها أثناء الإفطار لم تعد سنًا

إنها أقرب إلى جسم رخامي بحجم إصبع اليد.. بصعوبة من التدقيق أدرك أن السن موجودة، لكنها كبرت في الحجم، وبرزت منها شعيرات رقيقة شفافة في كل اتجاه كأنها تحولت إلى فرشاة

لم يفهم.. شعر باشمئزاز ودهشة، ثم قال لنفسه:

«عفاريت.. لابد أن بعض العفاريت تعبث عليها»

لكنه كان يعرف من هو الفاعل..

العفاريت لا تجعل السن تنمو.. ثم من سمع عن سن أصيبت بعفاريت؟

خطر له أن يتخلص منها، ثم فضل أن يتركها ويعود للنوم..

هذه المرة لم يزره (ماوتسي تونج) أو الملك (فاروق)

في نوم هادئ حتى دوى صوت المنبه

* * *

منذ متى يحرص على الاستيقاظ مبكرًا؟

لا يعرف.. هي عادة قديمة منذ كان يذهب لعمله صباحًا، واليوم قلت معنى العادة معه، لكنه كان يحب شيئًا آخر.. أن يتلذذ بتلك الساعات التي يبقى فيها وحده في البيت.. (نبيلة) في المدرسة و(عفاف) في العمل.. البيت كله ملكه الخاص.. يصنع الشاي.. يرقد في الصالة.. يفتح جهاز التلفزيون.. يقرأ الجريدة.. يكلم نفسه بصوت عال، لا أحد يلومه أو يتهمه بالخبل

وفي الواحدة بعد الظهر يخرج ليأتي بالطفلة من المدرسة

إن يومه الحقيقي يبدأ بعد نوم العصر .. هنا فقط يخرج يزور صديقاً أو قريباً .. يبحث عن عمل جديد .. ثم يعود للبيت في العاشرة مساء ليتناول العشاء ويشاهد التلفزيون بعض الوقت . بينما تصر زوجته على أن (التلفزيون لم يعد كما كان) كأن (مصر) تعرف التلفزيون من القرن الثامن عشر

هكذا بدأ يومه كالعادة بالإفطار

شعر بذلك الألم الممض أسفل الظهر .. كان من معتادي تمرير حصوات الكلى Stone passers ويعرف جيداً تلك الأعراض ، حين تجد حصوة صغيرة طريقها إلى المثانة متوسلة أن تغادر جسده .. كان يعرف هذه الأعراض وقد توقعها منذ أسبوع .. إنها تلك اللذة التي تعقب الألم أو الألم الذي تعرف أن بعده لذة .. لذة الخلاص

هكذا تناول الحصوة المتكلسة .. كانت في حجم حبة الفول شديدة الخشونة .. النشوة الحقيقية تأتي من تصور أن هذا الشيء المريع كان في جسدك وقد خرج منه

يعرف بقية القصة .. سوف يعاني بعض الألم في التبول وربما ترتفع حرارته قليلاً في المساء .. هذا علاج هنا يعرفه .. بعض الأسبرين والأقراص المسكنة .. وسوف ينتهي الأمر سريعاً

حمل الحصوة إلى الصيدلية ووضعها في العلبة التي تحتوي على بقاياه .. إنها العاشرة في حياته .

وهو إنجاز بالنسبة لرجل في الخامسة والأربعين من العمر

ولكن ..

لحظة من فضلك !

السن الأخرى التي قلعها أمس قد أصابتها ذات الأعراض وانتهت بذات الرعب !

ماذا يحدث هنا ؟

شعر بدوار ، لابد أنه مصاب بمرض خبيث لا يعرف كنهه .. لا يوجد تفسير آخر .. السرطان .. لقد حسم به لاشك في هذا .. فلابد أن عقله الباطن يعرف عن جسده ما هو أكثر

* * *

مر شهر آخر ..

لقد وجد (بكر) عملاً كمحاسب في شركة يمتلكها أحد أصدقائه .. ليس هذا بالعمل الممتع أو المجزي .. ليس

بالعمل الذي تنتظره هنا كاملاً. لكنه كان بحاجة إلى أن
يبتعد عن ذاته بعض الوقت ... الوحدة والهواجس كانت
تعذبه. بعد أن يغلق عليه باب الشقة وحده، حتى يصحو
ذلك الغول الذي يلتهم أعصابه

أشياء كثيرة تغيرت في تلك الشهور ... عرف أشياء كثيرة لكن
علامات الاستفهام تزايدت ... كتب (الميتافيزيقا Metaphysics)
تخبرك بأشياء كثيرة، عن العلامات التي يحتوونها على القبور
وأثر الأقدام القادمة من الفضاء وجلسات تحضير الأرواح.
ولكن ما الذي تخرج به في النهاية؟ لا شيء ... المزيد من
الأسئلة ... هناك أمور غريبة تحدث ... هذا هو كل شيء

لقد عرف (بكر) الكثير لكنه لم يعرف شيئاً على
الإطلاق. ولم يظفر بتفسير مريح

فقط قال له الأطباء - الذين لم يروا كل شيء - إن
جسده سليم. لا أحد يضمن له ألا يصاب بالسرطان غداً.
لكنه الآن في هذه اللحظة بعينها ... خال من أي
سرطان في جسده..

كان يخشى أن يتسلق إلى تلك (الصندرة) الصغيرة فوق

الحمام ... والسبب هو أنه نقل إليها محتويات الصيدلية حين
عاد إلى مصر. غير قابل للنقاش أكثر من هذا. لكنه اليوم
سيجسر ويتسلق إلى هناك

منذ أعوام أن الوقت قد حان كي يفعل هذه الأشياء
بمفرده ... والأمر سهل نوعاً ... إن جاره القديم قد انتقل ليعيش
في مدينة (نصر)، وهو يرغب في أن يبيع شقته ... هناك
سمسرة الشيوخ يعرفون المكان ... لهذا ترك معه مفتاح
الشقة كي يفتحها لمن يريد رؤيتها في أي وقت. وهو عالم
بما يحدث كثيراً ... هذه مسألة ثقة تحدث بين الجيران مع
الوقت. وإن كانت (عفاف) تؤمن أن في الأمر مكيدة ما
لا أحد في هذا الزمن يترك مفتاح شقته مع جاره ... وقد
حاول إقناعها بأنه لو كانت هناك مكيدة ما، فهو - (بكر) -
المعني بها ... يمكنه أن يستولي على الشقة إذا شاء ... إن
جاره أسلمه شقته ببساطة ... لكن الزوجة كانت متأكدة من
أن زوجها أحمق وجارها وغد والسمسرة نصابون ... وأن
ثمة خدعة تدور هناك

- « أنت تتصرف مع كل الناس بحسن نية .. ولن تلبث أن تدفع الثمن غاليًا »

ثم تمصمص بشفتيها متحسرة وتقول:

« أمي قالت لي إنك تبدو أحمق .. ولم أصدقها إلا رحمها الله .. لا بد أنها تنظر إلينا الآن ساخرة »

كان الوقت قد فات لإفهام هذه المرأة أن الناس لديهم مشاغل أخرى غير خداعها .

المهم أن أولى الاستفادات من هذه الشقة قد حان .. لذا انتهز فرصة ذهابها للعمل .. وفتح باب الشقة ونقل إليها كل تلك الأشياء الرهيبة في (الصندرة)

لكن يعرف أن أوان التصرف وحيدًا قد فات .. أوان الاستعانة بالأصدقاء قد فات

يجب أن يجد من يفهم هذه الأمور .. يجد شخصًا يصغي ولا يسخر .. وربما يساعد

كان هذا حين جلس جوار المذياع ذات ليلة فسمع حلقة من برنامج (بعد منتصف الليل)

اسم ضيف الحلقة الدائم هو (رفعت) .. (رفعت إسماعيل) إنه طبيب ذو خبرة بعالم ما وراء الطبيعة .. وهو بهذا يجمع بين الطب والميتافيزيقا .. وهما وجهان لعملة (بكر) الحلقة

على هامش جريدة وجدها اسمه دون أرقام الهاتف

ترى ماذا يملك العجوز (رفعت إسماعيل) لي بلديه ؟

* * *

4- مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

بدأ دوري في القصة في شهر ربيعي كئيب .. فأنتم تعرفون تأثير الربيع على أعصابي، وتعرفون أنني كنت أقضي الوقت الذي يتهامس فيه العشاق بالغزل، في وضع قطرتي العين والأنف .. لأن كل حبوب اللقاح في الجو تحيل جهازي التنفسي إلى مستنقع موحل.

كنت في المستشفى وقد فرغت من جولة العصر بالباب .. وجلست أحاول أن أسند القطرة التي في عيني .. ربما هذا يطرح الناس حين يجدوا شخصًا .. غير يضع لهم قطرة العين .. ستنتهي بحبيب شعب ؟ لا أدري .. لما رحت أجد في علاقة الرئيس بالمرءوس ستكون غريبة نوعًا .. لو تضمنت وضع القطرة في العين ..

سمعت دقات على الباب .. ثم دخل (بكر) .. لقد وصفته من قبل فلن أزيد على ما قلت إلا أنه يبدو في سوء حال معي.

- .. (رفعت) ! كنت قد التمست بك أمس ..

هكذا وجدت فرصة سانحة .. لتحطيم جدران الثقة إلى هذا الحد، لكني قد شئت في اقتناص عيني مفتوحة

وكنت على استعداد لأي شيء .. لهذا طلبت منه أن يضع لي قطرتين في كل عين ..

كما تتوقع لم يدر ما يقول أو يفعل .. كان محرجًا بشدة ورأيت يده ترتجف، حتى كاد يفقأ عيني .. أخيرًا نجح وسال السائل البارد يغمر قرنية عيني وتسلل إلى أنفي، أخرجت منديلي ورحت أتمخط بحرية واستمتاع

في النهاية أفرغت أنفي ووضعت على جهازه العصبي ما لا يطاق فدعوته إلى الجلوس

قال لي في حرص وهو يتحاشى عيني:

- .. لا أعرف إن كان بوسعك أن تساعدني .. لكن الكتمان في حد ذاته مرهق .. لعل الكلام نصف العلاج كما يقولون ..

قلت له وأنا أتفحصه بعناية:

- من هذه الناحية كن مطمئنًا .. التي أذناي تمشيان على نفسي ..

هكذا راح يحكي لي قصته وهو يحك أرنبة أنفه

كان الجزء الذي بدأ به هو منذ عاد إلى داره .. أي أنه لم يحك لي شيئًا عن قصة فقدان الوعي في المقابر وهكذا بدا لي ما يحكيه كأنما جاء من سماء صافية

كان في حالة رعب ولا ألومه كثيرًا .. كما قلت على لسان المخرج الكندي (كروننبرج Kronenberg) - الذي يطلقون عليه (ملك الرعب البيولوجي) - فإن رعب التحلل الجسدي هو أبشع أنواع الرعب على الإطلاق .. رعب أن تتبدل أجسامنا التي عرفناها جيدًا وتذوب .. من بين كل الأمراض يتمتع (الجذام Leprosy) بسمعة سيئة لأنه يعني تساقط الأطراف والأنف .. رعب التحلل الجسدي يطاردنا طيلة الوقت في صورة الشيخوخة.

هذا الرجل يفقد أجزاء من جسده .. وهذه الأجزاء تتصرف بشكل غريب حقًا لا ألومه على شيء.

كنت قد بدأت أتحمس .. ولكن من الشعور أن أتحمس للشيء.

هكذا وضعت أوراقي في درج المكتب ، وأعلنت لنفسي راغب بحق في أن أذهب للتحقيق في الموضوع .. لم يكن على استعداد لهذا التحمس المفاجئ ، لكني كنت مصرًا كالخرتيت.

وسرعان ما كنت أتجه إلى بيته

* * *

على باب شقته توقف .. وكنت أنا أتنفس وجيب اللهث أسمعك بانتظار العثور على مقعد

قال لي وهو يدخل

- لحظة واحدة .. سأعود حالاً.

توارى بضع دقائق ، وأنا أحاول جاهدًا استرجاع أنفاسي ثم عاد لي حاملاً مفتاحًا مشهورًا في يده وقال وهو يتحرج من

- وليس هنا .. أنت تعرف لماذا .. سيبدو الأمر مريعًا لو ..

لم أفهم شيئًا لكنه اتجه إلى الشقة المقابلة وأولج فيها مفتاحًا ثم آخر .. عدة أقفال تنفتح ، ثم فتح الباب

الرائحة المميزة للشقق المغلقة من فترة طويلة تطالعني ، ورأيته قد دخل فدخلت خلفه

على قدر ما تبين لي .. كانت الشقة خالية تمامًا ، ما عدا أريكة عتيقة ملقاة في ركن الصالة وبضعة صناديق ورقية يبدو أن بعض محتويات الشقة لم تكنس فيها .. هناك ورق حائط عتيق يعود للفترة ازدهار فن (البوب Pop) كل شيء في الحياة كان مشجرًا زاهي الألوان في تلك الفترة .. القمصان وورق الحائط والسجاجيد

مشيت وراءه فإذا لخطواتي صدى غير محبب على الإطلاق .. سمعت خلاله لسعالي صدى كريهًا ..

قال وهو يشير إلى ممر جانبي ضيق:

- «إنه المعمل .. أنت تعرف أن ..»

طيلة الوقت يفترض أنني أعرف أن .. كما أنه لا يكمل أية جملة حتى نهايتها ..

مشيت وراءه إلى المعمل .. ونظرت إلى حيث وقف أمام المغطس، وأشار إلى شيء في داخله:

هنا تصلب الشعر الباقي على جانبي رأسي ..

* * *

كانت هنالك عدة أشياء في المغطس الهائل ..

بعض هذه الأشياء كان بحجم رأسك - لو كنت فتاة دقيقة الحجم - وبعضها بحجم البطيخة المكتنزة .. الشيء الذي يميزها جميعًا هو أنها بشعة المنظر .. يوجد مركز لبني يمكن أن تراه بشيء من العسر وسط زغب كثيف يحيط به .. لو شئت أن تصور المنظر بدقة فاشتر برتقالة تعطن بضعة أيام، وسوف تجد الزغب يحيط بها

أعصاب دقيقة .. أهداب دقيقة تخرج من كل صوب وفي كل اتجاه .. أهداب يغلب عليها اللون الرمادي، لكنك تتبين بسهولة ظلال اللون الأزرق أو الأخضر ..

قال (بكر) وهو يشير إلى شيء داخل فمه:

- «سوف تجد أربع أسنان سقطت في فترة وجيزة .. أما هذا فصورة الفك ..»

لم أرد .. هل أتجاسر فألمس هذه الأشياء لم أنس أحلام باختلاط عدوى ما .. عدوى؟ لا أعرف عدوى تسبب شيئًا كهذا، ولم أسمع عنه .. لكن هناك مرة أولى دائمًا، وربما تكون أول أحمق يلمس هذه البكتيريا الجديدة التي ستصفها كتب الطب بالتفصيل بعد عشرين عامًا

كأنه قرأ ما في رأسي

- «حقًا لا أعرف كنه هذا .. إنه غريب .. ولأنه غريب هو مفزع ..»

- «وليس هذا كل شيء ..»

ومد يده إلى جوار المغطس .. كانت هناك عصا معدنية ملقاة على الأرض .. قبض عليها ومد يده بحذر إلى داخل المغطس .. المنظر الذي ذكرني بحارس حديقة الحيوان حين يدس شريحة من اللحم بعصاه في فم أسد غضوب

هنا .. تحركت الأهداب !

تحركت بقوة بحركة متموجة تذكرني بحركة أقدام الأخطبوط ..

صحت وأنا أتراجع للوراء:

ـ « هذا الشيء حي !! »

قال في غيظ:

ـ « نعم .. أنت بحاجة إلى من يصف لك ما تراه .. طلبت رأيك لا وصف ما تراه بأسلوبك البديع .. »

قلت في غيظ مماثل:

ـ « لا تتوقع مني أن أنظر إلى المشهد بلا مبالاة، ثم أقول (آه .. أوه .. هذه حالة مرضية واضحة .. لقد رأيتها عشرين مرة من قبل) .. إن هذا الذي أراه لم يمر بي قط .. لابد من فترة أستجمع بها خواطري .. »

مد العصا وعبث جسماً آخر، لتنكمش ..

هذه ـ على قدر علمي ـ أغرب حديقة حيوان على وجه الأرض ..

أسف وهو يعيد العصا لمكانها:

ـ « الطريف هنا هو أنها تنمو باستمرار .. قارن بين حجم السن وحجم هذا الشيء .. الأمر يتعلق بمتوالية هندسية لا حسابية .. »

قلت لنا على وشك الإصابة بنزف مخي .. كل هذا عجيب، لكن من الواضح أنه أخذ أكثر من وقته ليحلل الموقف، هو يعرف طباع هذا الشيء جيداً

همس وهو يتراجع عن المغطس. للمرة الأولى أستطيع أن أعد أسنانه قاطبة

ـ « هل ثمة مثل معين في ذهنك عن حالة (السرطنة) هذه ؟ »

فكرت حيناً، ثم قلت:

ـ « الأمر شبيه إلى حد ما بأخذ نسيج من جسد حي واستزراعه .. هناك خط نسيجي Cell Line شهير اسمه HELA .. عبارة عن سرطان عنق الرحم لامرأة تدعى (هيلين لين)، ماتت منذ عشرات السنين .. ما زالت خلاياها حية وقد تكاثرت، وهي موجودة في مختبرات عديدة من العالم .. يمكن القول إن هذه الخلايا خلدت بينما صاحبتها هيكل عظمي في القبر الآن .. هذا هو المثال الوحيد الذي يحضرني .. »

ثم أردفت وأنا أعقد شفتيّ عميقًا:

ـ «لكن الفارق واضح.. نحن لا نتكلم هنا عن خلايا.. نحن نتكلم عن لسان وحنجرة وعضلات.. باختصار هي أجسام ميتة بالفعل لا يمكن أن تتكاثر».

هز رأسه وضحك.. ذلك الضحك الذي يوحي بأن الصدر سيبدو عليه بعلى الأطفال.. إنه سخيف كما هو واضح، كما أن حالته العقلية ليست على ما يرام.. إنه على حافة الهستيريا..

●

قال لي وهو يخرج من المعمل:

ـ «أنا أصلًا محاسب ولا أفهم هذه الأمور الطبية جيدًا لكنني سأستخلص من كلامك إن ما أمر به عجيب».

ـ «هل مازلت تشك في الأمر؟»

وجلست جوار المغطس، وأخرجت من جيبي منديلًا ورقيًا صغيرًا، بحثت عن مطواتي ففتحتها.. ورحت أزيل بعض هذا الزغب الرهيب لأضعه في المنديل

قال (بكر) الواقف على الباب:

ـ «لم أعرف أن أطباء أمراض الفم يحملون مطواة».

ـ «المتخصصون منهم يفعلون.. سآخذ هذه العينة لفحصها مجهريًا.. هذه هي الخطوة الأولى..»

كانت الأعشاب الرهيبة تتلوى في المنديل الورقي.. فشعرت بتقزز.. أخرجت كيسًا صغيرًا من البلاستيك ووضعت المنديل الملفوف فيه. فسمعت (بكر) يقول ضاحكًا:

ـ «وهل أطباء أمراض الفم المتخصصون يحملون كيسًا من البلاستيك كذلك؟»

ـ «فقط الذين كانوا ينوون ابتياع خبز في طريق العودة لدارهم.. والآن هلا خرجنا من هنا؟»

وعندما غادرنا الشقة الرهيبة.. ووقفت برأسه ألف شكل فهيبس مفكر!

في هذه اللحظة سمعنا صوت خطوات على الدرج

.. رأس.. ثم وجه.. امرأة في الأربعين من عمرها أحست تسمع الضحك، رعبًا وشكًا حتى صار هذا جزءًا من مظهرها العام.. كانت تحمل بعض الخضراوات وقد بدا أنها حسب موقعه لا بأس بها في وسائل المواصلات

ـ «معذرة يا ... الدكتور (رفعت) صديق عزيز».

هزت رأسها في فتور ، ونظرت لزوجها مرتابة .

– « لم تذهب للعمل اليوم .. قلت إنك ذاهب .. »

– « طلبت الانصراف مبكرًا .. »

ورحت تنقل عينيها بين وجهينا بحثًا عن مفيد ما .. ثمة لعبة غريبة هنا .. فلم تجدها بعد ، لكنها لم تستطع أن تنكر شيئًا ، لهذا فتحت باب شقتها ودخلت .. ودعاني (بكر) إلى الدخول فلبيت .. من الصعب أن ألقي نظرة على حياته ..

دخلت الزوجة المطبخ ، وسمعتها تتشاجر بصوت عالٍ لا ليس بسببي ولكن لأنها تشك في أن البائعة تغشها في الميزان .. وسمعتها تطلب من زوجها إحضار الميزان كي تعيد وزن هذه الطماطم ..

– « هؤلاء .. اللصوص .. يكفي أن يغمض المرء عينيه لحظة حتى يجد نفسه مسلولًا .. »

كانت شقة عادية جدًا ضيقة .. من الشقق التي نسميها (مساكن شعبية) .. الأثاث لا يوحي بثراء ولا فقر .. لكن جوًا عفنًا من الكآبة يخيم على كل شيء .. حياتهم غير بهيجة على الإطلاق ولا أعرف السبب .. كما فهمت منه فزوجته لا تعرف شيئًا عن الموضوع ..

بعد ثوانٍ عاد (بكر) حاملًا ترمسًا .. وراح يتمهمه معي في لهو غير عادي .. لا أعرف سبب هذا الولع لكنه بكري يعرض السكر حتى ينقص السكر في دمهم عندما يشتهون أي شيء سكري بهذه اللهفة ..

زوجة الشيء المتزوجة التعسة إياه .. والأسوأ أن الزوجة عبرت المطبخ كي تجلس على الأريكة ترمقني في شك من تراقع مصيبه .. ولا أبدو كوحدة .. هذا لم أنسه كثيرًا

قال (بكر) متظاهرًا بالمرح والظرف :

– « قلقنا يا دكتور ؟ ستتلقى تراتيك .. هه ؟ لم ألس عليك بعد يومين ؟ »

قالت الزوجة في شك :

– « ولِمَ هو هنا ؟ هل أنت مريض ؟ »

– « بل هو يبحث عن شقة ، وقد جاء يرى شقة جارنا .. »

نظرت لي مرتابة .. لا يبدو على مظهري أنني من الطراز الذي يبحث عن شقة .. لا أعرف كيف يبدون لكنني لست منهم بالتأكيد .. إن دهشت بعقلي بالأسئلة .. أعرف هذا الطراز من النساء جيدًا ..

عادت تسأل زوجها :

- « هل أبصرت (نيب) من العربة ؟ »

- هي فقط لم يعد يتحمل أكثر ... ع في حسب

- « وهل أبصرته والقلوب أو عشكتها ؟ مهما ... لم تريني أنك لم أبصرها بعد »

وأردف القلائل

- « سوف أشرح معك ... أشعر بالمرض حتى شديد .. »

* * *

5- مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

ربما بعد عرفت هذا الجزء من القصة

الحقيقة أنني في هذه القصة بالذات، أتصرف كمن يحمل الفيلم السينمائي في منتصفه .. لم أعرف كيف بدأ كل شيء .. لكني أعثر من اللقطات والمقدمات .. لهذا عرفت الإجابة متأخرًا جدًا

عندما جاء المساء ذهب (بكر) للقاء أصدقائه كالعادة هناك بار صغير للمغتربين .. لا ليس نقابة ولكنها كافتيريا سيطروا عليها لحسابهم وصار كل من يجلس عليها معلمًا .. حتى إن الغريب الذي يجلس فيها يعامل معاملة سيئة جدًا، بل يقابل بنظرات الشك

المهم أنه تذكر أنه لم يحلق شعر رأسه منذ شهر ونصف، ولذا كان يحرص على أن يتلقى مرات الحلاقة [illegible] كل عاداته المختلفة تلك تحسبًا لاتهامه بمغامراته .. صحيح أنه يوجد عملًا لكنه غير مجز وغير مستقر .. حتى للكافتيريا كي يرتاد بانتظام، لأن هناك غالبًا بين رفقته من يدعوه إلى كوب شاي أو أكثر .. ومن يدعوه إلى حجر دخان.

قبل أن يتجه إلى الحلاق ، يجب أن تتفق قبل الموعد لن تبصر أحدًا

بدأ العجوز يثرثر .. إن كل حلاق يفهم سياسة الدولة خيرًا من أي سياسي محترم ولديه حلول اقتصادية لم يتوصل لها صندوق النقد الدولي بعد ، كما أنه ناقد سينمائي وزير سماء وخبير في الانشطار النووي لو لزم الأمر

قال العجوز وهو يفتح المقص ويغلقه في الهواء كأنما هو يستدعي الشياطين

- « صدقني .. إن النظرية التي توصلت إليها بعد تفكير طويل هذا الكلام الذي أقوله لن تجده في كتب ولن يصارحك به أحد صدقني ما توصلت إليه أن إسرائيل تضمر لنا شرًا .. »

لم يتفق (بكر) .. مع الحلاق لا اتفق ولكن أصيخ بالسلام وارتد العجوز وهو يسن الموسى لحدة على حزام من الجلد

- « ثم هلا عندك (بن جوريون) على سبيل المثال هذا الرجل يكفي أن تنظر له في عينيه كي تعرف .. إنه ينوي بك شرًا .. إن الأمر .. محيرة ! »

كان الألم في مؤخرة عنق (بكر) كافيًا ليعرف أنه جرح .. وهذا أنساه بالطبع أن الحلاق لم يقابل (بن جوريون) لأن الأخير مات من زمن بعيد لحسن حظنا

راح الحلاق يفكر راح يسكب بعض الكولونيا على عنق (بكر) .. الأمر الذي يشبه صب حمض كبريتيك على جرح مفتوح .. إلا أنه نظر لـ (بكر) في المرآة في حيرة ، وقال:

- « إنك الثالث ! لا أعرف كيف ! إن المعجزات تحدث دومًا لكن البشر لا يرون .. »

- « هل تعني أن هذا الجرح التئم بمجرد أنك صببت عليه بعض هذا المحلول ؟ »

- « هذا هو ما أراه .. لعلني شفيت بـ استنادك (بكر) ولم تعد عيناي كما كانت .. دعنا نكمل كلامنا .. أقول لك إن (بن جوريون) هذا خبيث .. حينما قابل (جمال عبد الناصر) الزعيم الراحل قال له: كي نريد هدم بلاد العرب .. »

- « (بن جوريون) قابل (جمال عبد الناصر) الزعيم الراحل ؟!! »

- « نعم .. نعم .. ابن خالتي كان موجودًا في اللقاء به .. والله .. »

ومن جديد تصلب الحلاق وراح يحملق في مؤخرة عنق (بكر) .. ثم قال في دهشة:

- « ما هذا ؟ »

- « جرح جديد ؟ »

التقط الحلاق مرآة مستديرة صغيرة وثبتها عند مؤخرة عنق (بكر) بحيث تعكس صورة مؤخرة رأسه، وقال:

- « هذه الأهداب الرقيقة ... ليست شعرًا ... إنها تخرج من تحت فروة الرأس ... لقد كان شعرك يخفيها لأنها رقيقة وعددها قليل ... لكني الآن أراها بوضوح ... »

ارتجف (بكر) في مقعده ... وشعر بقلبه يخفق تحت المنشفة المنسدلة على صدره ... إنه لا يرى شيئًا في المرآة لكن بمكنه أن يتخيل ...

مد الحلاق الموسى وبحذر قطع شيئًا في مؤخرة الرأس ثم مد كفه المفتوحة لـ (بكر) وقال:

- « أنظر لهذه .. »

لم يحتج (بكر) إلى عدسة النظر ... ليرى تلك الأهداب الذهبية التي كانت تخرج من لحمه ... والمصيبة إنها حية تتحرك حركة كسولًا كديدان الأرض ... رقيقة شفافة رقيقة جدًا

قال الحلاق وهو يتفحصها في اللمبة متحيرًا:

- « لا أعرف ما هي لكن لابد أن ترى طبيب أمراض جلدية ... سيكتب لك أقراصًا تريحك فورًا ... »

- « سأحاول .. »

قالها وتنهد .. لو كان حل المشكلة بهذه البساطة لكانت الحياة بسيطة أكثر من اللازم

* * *

أما أنا فكنت في هذه الأثناء جالسًا مع صديق من قسم الأنسجة.

لم يبق سوانا في المختبر ... بل الكلية ذاتها ... المكان الوحيد المضاء في هذه الساعة ... مما أضفى رهبة معينة على لحظات الاكتشاف هذه

- « ليس هذا نسيجًا حيًا أعرفه ... »

- « لعله يتكون من شيء ما ... أليس كذلك؟ »

فكر قليلاً ثم تفحص الشرائح التي أعدها تحت المجهر، وقال دون أن يبعد عينه عن العدسة:

- « لو أردت رأيي ... يبدو الأمر كمسخ خلوي Syncytium ... مجموعة من النقاط تسبح في بحيرة من السيتوبلازم

Cytoplasm .. لكن لا توجد أية محاولة لتكوين جدران خلوية .. وهذه النقاط لا تصلح لتكون نوية .»

جلست على مقعد غير مريح، ولبست حلتي الطبية .. وسألته :

- «ألم تر شيئًا كهذا من قبل ؟»

- «يبدو كأهداب الحيوانات وحيدة الخلية Ciliates لكنني لم أرها قط بهذا الطول وهذا الحجم .»

هوى قلبي في مكان ما من جسدي .. الجرثومة الثالثة المحبوسة في أقفاصها في قسم (الميكروبيولوجي) .. تكاثر ليس مخيفًا للنفس كما ترى .

قلت له في كياسة :

- «هل تقبل أن تقدم لي المزيد من العينات ؟ أريد أن تجرب كافة الأصباغ على هذه الشرائح .. يجب أن أعرف كنه هذا الشيء .. ما هي احتمالات أن يكون خطرًا ؟»

قال باسمًا :

- «هذا هو الشيء الوحيد الذي أثق به .. ليس هذا خطرًا ولا عفنًا .»

- «ولكنك تعرف جيدًا ما ليس هذا الشيء !»

- «هذا مفهوم في حد ذاته .. أنت تعرف مقالة (توماس إديسون Edison المخترع الأمريكي العظيم : (أنا لم أفشل في مائة تجربة .. بل اكتشفت مائة طريقة لا تصلح) .. من المفيد أن تعرف (ما ليس) كما يفيدك أن تعرف (ما هو) .»

- «سأفكر بهذه الطريقة المتفائلة .»

راح ينظر تحت المجهر قليلاً، ثم قال :

- «بيني وبينك يبدو أننا وجدنا شيئًا جديدًا .. إننا وجدنا كائنًا لم يوجد قط .. أو بمعنى أدق لم يصفه أحد قبلنا .. إني أرى عشرات الأوراق العلمية تنتظرنا .»

ضحكت حتى بدأت أسعل وسألته :

- «هل تقترح اسمًا ؟ إن لك الشرف في هذا .»

قال ببساطة :

- «الفيروس Virus بدوره كائن غامض لا نفهم كيف يعمل .. بروتين وحمض نووي كلاهما ميت .. لكن ما إن يندمجا حتى تبعث الحياة في هذا الكائن ويتكاثر ويقتل .. فيروس باللاتينية معناها (سم) .. سنطلق اسمًا معدلاً على هذه الأشياء .. (الميروسنت) .»

ابتسمت وقد تذكرت أساليب الغش التجاري التي تتبع مع العلامات التجارية المشهورة .. أجهزة إلكترونية تصنع في اليابان ، ثم يتم إنتاجها في (ماليزيا) مع إدخال تعديل بسيط جداً على الاسم .. بعد أعوام توفي (بروس لي Bruce Lee) النجم الشهير فظهرت عشرات الأفلام لممثل اسمه (بروس لاي) على أساس أن المشاهد لن يلاحظ الفرق

بروس وبروس .. لا بأس .. دعابة لا بأس بها

نهضت متثاقلاً وسألت صديقي ، واسمه (حسن) بالمناسبة - عما إذا كان يرغب في الانصراف معي . فقال إنه متحمس لما وجدناه وسوف يقضي بعض الوقت هنا

على أنني في طريق خروجي من القهوة رحت أفكر بعمق

الممر المظلم الطويل بين الأشجار الذي يعج بالحركة والصخب صيفاً ، هو الآن ممر يصلح لفيلم رعب .. الإضاءة الخافتة لا تزيد الأمر جمالاً .. لكن الرعب الحقيقي كان يأتي من الفكرة ..

كنت قد شاهدت فيلم (غزو خاطفي الأجساد Invasion Of Body Snatchers) أشهر أفلام رعب الاستحواذ في عصري، ورأيت كيف يستولي ([illegible]) على البشر

في قرية ، حتى يصير كل أهل القرية مجرد أغلفة تحوي هؤلاء .. كل ([illegible]) القادمين من الفضاء الخارجي في سرية كالعادة . فهل الأمر يتعلق بشيء كهذا ؟

ولو كان كذلك فكيف سأعرف ؟

توقفت جوار شجرة وقد خطرت لي فكرة معينة

كيف بدأ كل شيء ؟

(بكر) قال إن هذا حدث فجأة ، وأنا - ببساطة - لا أصدق حرفاً . لا أرى السبب لكني أعرف الحقيقة المبتورة حين أسمع واحدة .. لن يتحمس عملي ، وبحكم خبرة الوقت .. قد لا يعني هذا شيئاً ، لكن خبراء الإيماءات يقولون إن هذا دليل قوي على الكذب .. (الأمريكيين) يتكلمون عن دفع للتجاويف الأوعية الدموية ، ويشعر الرجل بحاجة عصبية لحك طرف الأنف .. لاحظتها كثيراً ووجدت أنها تصدق في أغلب الحالات

(بكر) لا يعرف كيف بدأت القصة ، لكنه بالتأكيد يعرف أين يبدأ ..

لأزورنه غداً ، ولأعرف التفاصيل منه

* * *

6 ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

صوت غليظ :

ـ « لقد تمكنا منه يا رجل .. لا تتركوه يفر .. »

صوت متحشرج :

ـ « لا يلمسه أحدكم .. لقد رأيتم ما حدث .. »

صوت من البقية :

ـ « أهيلوا التراب .. القبر معه .. »

* * *

عكف د. (محسن) غارقًا في دراسة هذه الخيوط الغريبة تحت المجهر ..

كان قد أحضر قفصًا صغيرًا به فأر أبيض .. كان ينوي أن يضع بعض هذه الخيوط مع الفأر ويراقب ما حدث .. ويبدو أن الفأر شعر بالهلع لأنه راح يتسلق القضبان في حالة هستيرية ..

بيروسات .. لا يليق بالاسم .. ما زال مذاقه غريبًا لكن

سرعان ما يفقده اللسان .. يشبه الأمر قطعة القات المضغة الجافة التي تمضغها عدة مرات، حتى تتحول إلى عجينة لينة سهلة المذاق ..

كان الآن متأكدًا من شيء واحد .. هذه الخيوط تكبر بلا انقطاع .. كانت مجرد راسب في قاع أنبوب الاختبار، ثم صارت تملؤها حتى الثلث ..

على نقيضنا .. (تكبر) ولا (تتكاثر) لأنه لا يعرف كيف يصف هذه الظاهرة التي يراها ..

شعر بحاجة ملحة إلى قدح من القهوة فاتجه إلى ركن المختبر .. هناك يحتفظ بإبريق شاي صغير و(كنكة) صالحة لإعداد القهوة .. وعلبة من البلاستيك بها السكر والبن، وسرعان ما اشتعل مصباح (بنزن Bunsen) بزرقته المميزة .. إن القهوة تقتبس دومًا جزءًا من رائحة اللهب الذي تعد عليه، لهذا الشذى تفسده (السبرتاية) ويفسد القهوة .. يناسبها مصباح (بنزن) ..

انتهى من إعداد القهوة، فصبها في كوب صغير، وجلس يرشف السائل الساخن عطر الرائحة .. شاعرًا به يغسل أعصابه عصبًا .. عصبًا .. إن تفكيره يصفو، ووجهه يزداد حدة

بالطبع لا يجد ما يفعله بعد أن يصلي الفجر في مسجد قريب .. لم يعرج على بائع الفول الشهير مثله الذي يبكر مبكرا فيملأ طبقه ويضع بعض الأرغفة الساخنة السمراء تحت إبطه ويعود لداره .. في العاشرة صباحا يتجه إلى صالون الحلاقة العتيق .. لم يعد هناك صبية يساعدونه فقد قل عدد زبائنه ولم يعد يستطيع الإنفاق على واحد

اليوم وجد ظاهرة غريبة بعض الشيء

هناك قطة .. قطة ميتة راقدة على جنبها أمام باب المحل بالضبط .. شعر بالضيق مع كثير من التطير .. ليس هذا أفضل مشهد يبدأ به المرء يومه . لكنه على كل حال حاول إبعادها

هل لاحظ أن هذه الجثة غريبة المنظر .. ما سر هذه الخيوط الزرقاء التي تخرج من أنف وفم القطة ؟

كان واهي الذاكرة ضعيف البصر بطبعه ، لهذا تذكر الحق أنه رأى شيئا مماثلا .. لكن متى وأين ؟ ومضة التمعت في عقله وفي عينيه اللتين اعتمت عدساتهما .. ثم خبت الومضة سريعا .. لقد نسي كل شيء من جديد .. لقد رأى الكثير من الموت في حياته . فما الجديد في أن تموت قطة ؟

التقط ورقة جريدة لف بها الجثة ، وحملها إلى مقلب القمامة المجاور وتخلص منها .

لكنه لم يستطع أن ينسى ذلك الشعور المعقد بالنفور والتطير منها

- « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم »

قالها وبدأ يفتح الأقفال ليرتفع ستار الصالون الحديدي

* * *

في العاشرة صباحا .. وهو نفس الوقت الذي يفتح فيه الحلاق متجره - دخل (بكر) إلى مكتبي بالكلية

كان د. (حسين) هناك يضع قطرة العين في عينيه .. رفع عينيه إلي وقال في تساؤل فقلت له وأنا أرمش

- « هذا الأستاذ (بكر) .. لقد حكيت لك عنه »

هنا تعطف (حسين) وراح يرمق القادم في اهتمام كأنه جاء من المريخ

قال (حسين) قد حكى لي كل شيء .. ولم أر فيه جديدا هناك خيوط - أو فيروسات - تنمو بسرعة .. ما الجديد ؟ لقد

حضرت له الخيوط وقلت له إنها تنمو بسرعة.. وبدا غير قادر على فهم أنها تنمو بسرعة.. واليوم جاء ليقول لي مستنكرًا ليخبرني إن الخيوط تنمو بسرعة! أكره الناس يسيئون قواعد اللعبة في منتصفها.

بالنسبة لي لا توجد مشكلة.. قبل ظهور هذه الخيوط موجود ومتاح.. فلا مشكلة في كونه أحرق بعضها لكنه - على كل حال - طرح سؤالاً مهمًا: لماذا لا تظهر هذه طبيعة الوقت؟ لماذا لم تتم إلا في تلك اللحظة.

جلس (بكر) في توتر.. كنت قد اتصلت به في عمله طالبًا أن يوافيني على وجه السرعة.. لا بأس.. إنه مثلي الآن.. يلعب على أرضي وبقواعدي.. لهذا أخرجت منديلي الورقي ماسحًا من قطرة العرق في أنفي، وسألته في حسم:

- « هل حكيت لي الحقيقة عن بدء هذا المرض؟ »

- « هل هو مرض؟ »

- « تلك الظاهرة.. هل حكيت لي الحقيقة؟ »

حك أنفه ليخفف الاحتقان قليلا، وقال:

- « نعم.. بالفعل.. هي الحقيقة الكاملة. »

نظرت إلى د. (حسين) ووجهت له الكلام (وهي طريقة يجيدها المحققون):

- « من حين لآخر يظهر من يعتقد أنه يستطيع خداعي لكنه مخطئ.. هل ترى هذا معي؟ ودعني أؤكد لك إنني عاجز تمامًا عن إسداء أي عون لمن لا يطلعني الحقيقة كاملة... »

ودارت محادثة طويلة بيني وبين د. (حسين) عن كيف أن الناس مخادعون.. يكتمون الحقائق، ثم يطالبونك باتخاذ قرار.. وحكيت له عن مرضى جاءوا بالشيء وعكسه.. وعن وعكات غريبة يطلبون العون.. وفي النهاية - وبعد جهد جهيد - تستنتج أنهم بالتأكيد تعاطوا، أو تعرضوا لسم من السموم الفوسفورية العضوية Organophosphorous هنا فقط يعترفون.. يصارحونك بأنهم شربوا رشفة (يوميس المبيدة) من ساعة.. فلماذا التزمتم الصمت؟ لماذا تربكون تشخيصي أيها الحمقى؟

قال د. (حسين) الذي التقط الخيط بسهولة:

- « الحق أن الناس أشرار فعلاً.. إنهم يخدعونك دون فائدة مرجوة لهم.. بل يفعلون هذا على سبيل الرياضة.. »

جلسنا معًا نتأنق في عملية غسل المخ هذه ودون أن نوجه كلمة واحدة لـ(بكر).. في النهاية نظرت إليه فوجدته شاحبًا كئيبًا.. لو كان قد قتل رجلاً لاعترف الآن

تنحنح وقال لي :

- « (حسن) .. الحقيقة أن الموضوع بدأ في زمن محدد ومكان محدد .. أو هذا ما أعتقده .. »

وراح يحكي لي .. وفي هذه المرة لم يحك كله ..

* * *

لم يكن لدى (بكر) الكثير .

لم يكن يعرف شيئاً عن كيف بدأ الموضوع .. لكنه يربط بينه وبين فقدانه الوعي قرب ذلك القبر في قرية معينة لن أذكر اسمها كي لا يلاحقني أهلها .. لا توجد علامات قاطعة تقول إن القصة بدأت مع هذه الحادثة .. أولى العلامات ظهرت بعد شهور أو أكثر .. لكنه ..

- « المرء يعرف نفسه جيداً .. ذلك الشعور بأنك لم تعد تماماً كما كنت بعد تلك الحادثة .. هناك بصمة معينة لروحك وأنت تعرف دون سواك متى تغيرت هذه البصمة .. »

فيما بعد تذكرت هذا التعبير حين حدثني أحد أصدقائي ممن يتعاملون مع الكمبيوتر .. كيف أن برامج مكافحة الفيروسات تحتفظ ببصمة للكمبيوتر .. تعرف بها متى تسلل فيروس ما .. إن تغيير البصمة يعني حدوث شيء .. لا يهم ما هو .. لكن شيئاً قد استجد .. شيئاً ليس على ما يرام

سكت (بكر) وقد أكب كوب الشاي قرب طلبته .

- « هذا السؤال الكبير .. ماذا كنت تفعل في تلك القرية ؟ هل أسرتك من هناك ؟ »

حك أنفه من جديد .. وقال وهو ينظر إلى كوب الشاي :

- « لا .. لسنا من المنوفية أصلاً .. لكن قصة القرية هذه موضوع شخصي .. المهم وما يمكنك أن تستخلصه هو أنني فقدت وعيي في مكان معين .. وبعده لم أعد كما كنت .. »

ساد صمت ثقيل .. في القهوة رفعت كوب الشاي إلى فمي وجرعت جرعة بهمة .. وسألته .

- « هل يمكن أن تقودنا إلى هناك ؟ »

نقل عينيه بيني و (حسين) .. ثم قال :

- « أعتقد هذا .. »

نظرت متسائلاً إلى (حسين) فقال هذا وهو يبتسم بحرج :

- « لا .. أعتذر عن عدم قبولي هذه المهمة .. أنا مشغول جداً .. والقرية بعيدة بحق .. هذه الرحلة قد تستغرق يوماً .. »

- « لا ألومك .. ليس كل الناس يملكون طناً من الوقت مثلي ؟ »

كقاعدة: كل الناس مشغولون لا يجدون وقتًا للتمعن فيما سمعهم ويتكلمون لسبب الشخص الثقة الوحيد في هذا العالم .. كلهم عظيمو الأهمية بحيث أنا بالفعل أملك شيئًا من الوقت .. لنتذكر عبارة (أنيس منصور) الرائعة: «لي الوقت من ذهب .. وأنا لدي الكثير جدًا من الوقت، لكن ليس عندي ذهب ..»

هكذا تم ترتيب موعد الحملة المنتظرة .. سنذهب أنا و(بكر) إلى تلك القرية البائسة التي لا أعرف علاقته بها .. سأرى المكان الذي فقد وعيه فيه وأحاول استنتاج شيء.

* * *

فيما بعد عرفت الباقي ..

لسبب ما لم يستطع (بكر) أن يغلق عينيه في تلك الليلة.

كان قلقًا يتقلب كأنما ينام على فراش (الشعلة الديبكي) الشهير .. وفي الثالثة صباحًا نهض .. ثمة شيء يدعوه إلى أن يخرج من الدار .. يذهب إلى الشقة المجاورة .. يتفقد (أطفاله) هناك!

لم يكن القط موجودًا في الشقة المجاورة .. كان موجودًا في شقته هو؛ لأن الزوجة سوف تصحو من نومها بلا شك .. عندها كيف يمكنك أن تجد عذرًا تقنع به هذه الزوجة المتشككة؟!

سوف تجحظ عيناها حتى توشك على الخروج من المحجرين، وسوف ترتجف وتكرر السؤال عن السبب في خروجه في هذه الساعة .. ربما اضطر لقتلها كي تهدأ قليلًا

لكن القدر كان أقوى منه .. هكذا أخذ المفتاح من المزهرية، وبرفق فتح الباب .. ودم يطلقه صمت المرضى، اجتاز الممر إلى الشقة المجاورة .. أولج المفتاح في الباب

أعاد القوابس إلى لوحة الكهرباء لأنه ينزعها دائمًا طلبًا للأمان

(هذا الصوت!...)

دخل إلى الحمام وفتح الضوء

(الصوت يعلو..)

هنا تصلب في مكانه وقد أوشك قلبه على أن يتوقف

لقد كبرت هذه الأشياء .. كبرت إلى حد مروع .. بعضها صار بحجم قلب صغير .. وبعضها صار بحجم رغيف .. مراعاة لو كنت رياضيًا .. هنا الأمر أفهم أنها للمرة الأولى التي يبدأ ملامحها تتخذ شكلًا حيًا واضحًا .. هناك

عين حمراء أو عينان .. إنها ترمقك .. من المؤكد أنها ترمقك .. بعض الأعراف تحور ليصير شبيهًا بالمخالب .. بعضها يبدو كالقدم الأخطبوط .. ثمة صوت حك غريب ينبعث من المغطس .. أما عن الرائحة فحدث ولا حرج

هناك أحد هذه الأشياء يزحف فوق الجدار .. لقد خرج من المغطس ، ويزحف إلى الجدار المقابل ليتسلق السقف الأملس .. هذا يعني أن لديه ما يشبه الممصات

فجأة خطر له أن ينظر لأعلى فقط .. وكان ما توقعه .. فوق رأسه بالضبط يتدلى من السقف أحد هذه الأشياء المريعة وقد تدلى منه ممص طويل يحاول الوصول إليه

انطلقت منه صرخة سرعان ما كتمها

لا يجب أن تصحو الزوجة على صرخته هي التي لم تصح على صوت فتح الباب

أغلق باب الحمام وقلبه يتواثب ، حتى اضطر إلى غلق فمه بيده كيلا .. لن يدهش لو خرج قلبه من فمه ليتقافز على البلاط كضفدع .. كل شيء ممكن

وفجأة خطر له خاطر بهيج

هذا كابوس .. لا أكثر ولا أقل كان نائمًا ثم صحا من النوم وعقل قلقة .. التفسير الوحيد هو أنه لم يصح بعد .. إنه ما زال في الفراش يحلم ..

هكذا - راضيًا عن هذا الخاطر - أغلق باب حجرة ومشى في شقته .. فقط ليجد زوجته واقفة في الصالة وقد تحولت إلى تمثال مجسد للرعب والشك .. (ميدوسا) بشعرها المنكوش المنفوش ومنامة النوم .. تقف في ضوء الصالة الخافت وتطلب منه تفسيرًا .. أعرفُ بسبب الرعب الناس في درجة مبالغ فيها ، تصيبهم بالرعب نحن كلنا .

لكن المشكلة هنا هي أنه بدأ يفهم .. لم يكن هذا كابوسًا .. كان واقعًا .. واقعًا كليًا

- - (بكر) !! ماذا حدث ؟ لماذا غادرت الدور في هذه الساعة ؟ »

* * *

٧ - مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

لم أكن فخوراً بسيارتي الجديدة إلى هذا الحد .

إنها كما لاحظتم مستعملة ، وليست في أفضل حال ممكن ، ولقد كنت مولعاً بسيارتي القديمة .. وصارت بيننا ألفة تلاحم تشبه ما ينشأ بين زوجين عاشا معاً عشرين عاماً ..

لقد لاحظت شيئاً في جعل (بكر) يتكلم .. إنه كئيب شاحب الوجه صموت .. ولم أكن وقتها أعرف سبب هذا التبدل .. كان من قبل متحمساً إلى حد ما ، ولا أعتقد أن شيئاً جديداً قد حدث .

سألته بينما العربة تخرج من القاهرة :

- « يبدو أنك صرت تختلف عن عهدك كثيراً هذه الأيام » .

قال دون أن ينظر لي :

- « فليذهب العمل إلى الجحيم فأنا لا أحبه .. إن لم يقيلوني سأستقيل » .

ثم عاد إلى الصمت .

توقع أنني حين أفكر في الأمر أجد أن هذا الرجل كان في غاية الضعف .. حين ترى هذه الكلمات البشعة التي رأيت ، وهو يعرف أنها خرجت من ذاته ، فمن الطبيعي أن تنهار تماماً لحقيقة أن (بكر) كان أكثر وعورة وعمقاً مما تصورت ؛ كان أشبه ببئر يخفي أسراراً عديدة .. أو - كما يحلو للإنجليز القول - هو جبل جليدي Iceberg لا ترى إلا قمته ..

تلك الرحلة .. تلك ..

أنا بطبعي أحب القيادة لفترة طويلة .. ولقد كان المشوار شاقاً بحق ..

في النهاية ظهرت القرية ..

هنا تساءل كل من يقابلنا عن مكان المقابر .. إن (بكر) يعرف القرية لكنه ليس خبيراً بها ، وهو لا يعرف كيف نتجه إلى المقابر .. وقد ساعدنا هذا على إيضاح سبب لا أعرفه .. السبب مهم جداً في الريف ، لأن كل القرية - بلا مبالغة - تخرج لمراقبتك في شك .. الكل يشعر بحق إلهي في التدخل فيما لا يعنيه .. فجأة صارت للإنسان مهمة واحدة في الحياة هي معرفة ماذا تريد .. لم يعد أحد يأكل أو يشرب أو يعمل ولم تعد هناك هموم أو مشاكل ما عداك .. عشرات يدنون من نافذة السيارة ليسألوك .

- «من تريد هنا يا أستاذ؟»

فأقول راسمًا ابتسامة على وجهي:

- «أريد جماعة (شرشيرة).. إنهم أقاربي من بعيد».

هذا لأن اسم (عبد السلام شرشيرة) هو الاسم الوحيد الذي يحتفظ به (بكر) في ذاكرته.. هو فاقد الوعي ولكن يبدو شاهد ذلك الكثير.. هذا من ناحية يجعلنا نعرف الموضع، ومن ناحية أخرى يجعلنا غير غريبين عن القرية.

يفكر المتطوع مليًا ويحك تحت العمامة التي يرتديها، ويتساءل:

- «(عبد السلام شرشيرة)؟»

ثم يفرد ذراعه ويشير إلى اتجاه ما.. ثم يمسك بصبي متسخ شرس من قفاه ويصفعه ويأمره:

- «خذهم يا ولد إلى تربة (شرشيرة)..»

ويثب الصبي إلى المقعد الخلفي للسيارة ليرشدنا.. لكن هذا لا يشيع التفاؤل هنا.. فلا تملك أن تتفاءل من يحشر رأسه في النافذة ويسألك:

- «من تريد هنا يا أستاذ؟»

هكذا يمر الوقت والسيارة تتسلق تلالًا وتهبط وديانًا.. كل بابٍ ومسمار فيها يئن، وقت تحاول ألا تدهس عنزة عابثة أو دجاجة ضالة، أو طفلًا يزحف.. لأن معنى هذا أن تلقى حتفك بالفئوس خلال ثلاثين ثانية..

كنت أنا قد وصلت إلى استنتاج مهم بعد عشرات الوجوه التي أرشدتنا لوجهتنا.. لا أحد يعرف (بكر) في هذه القرية. فما معنى أنه كان منهمكًا بأمور شخصية فيها؟ لماذا جاءها أصلًا؟

لن يجيب عن هذه النقطة لو سألته.. لكنه سيفرغ أحشاءه فيما بعد.. أعرف أنه سيبهر ويفعلها

في النهاية ترى منظر المقابر ليهيج بعمق أمام عينيك.

ويهتف الصبي من المقعد الخلفي:

- «تعال يا أستاذ.. سأريكما التربة..»

ونثبت فرملة اليد التي لا تعمل، ونترجل.. مشينا بعض الوقت خلف الصبي.. كانت هناك مجموعة من الأشجار.. ثم هو أقرب إلى ممر ضيق طويل.. و..

سمعت أنة انفطرت لمصدرها.. كان (بكر) يتأمل الأشجار وقد تقلصت شفتاه.. وخطر لي أن هذا الرجل يتذكر شيئًا ما.. أنا متأكد من هذا.. لقد كان هنا لكنه نسي.

هناك فرجة بين الأشجار اجتزتها الصبي برشاقة ووقف [illegible]

الحقيقة أن الفرجة ضيقة جداً خلفها منحدر واضح .. هذا يعني أنه بعد ما تتسرب نبتك بين الشجرتين ، سوف تنحدر في التراب أو الطين مسافة لا بأس بها

صحت في الغلام :

- « ألا توجد طريقة أسهل ؟ مستحيل أن يعبر كل من يريد قبر هذه الأعاجيب البهلوانية » .

- « نلف هذه الصبر وأسرع .. هلم يا أستاذ ! » .

توكلت على الله ، ونظرت إلى (بكر) لكنه كان يبحث أسوأ حالاته .. منذ يحيله على البسيطة ؟ وهكذا قررت أن أبدأ أنا .. لا بد - بالنسبة للياقتي البدنية - من شخص ينتظر خلفي ليجرني من عنقي لو تعثرت أو تعثرت

بصعوبة عبرت بين الفرجة وبصعوبة أكثر نجحت في ألا أطير عبر المنحدر .. وفي النهاية وجدت أنني أقف وسط المقابر بالضبط وقد صارت بذلتي الصورة الأكمل رمادية من فرط الغبار

بعد قليل لحق بي (بكر) وهو يلهث

وقف ينظر حوله في حيرة ، ثم سأل الغلام مرتبكاً :

- « هل هناك فتحة أخرى تقود لهنا ؟ »

قال الغلام وهو يلوك ثمرة (جميز) لا أدري من أين ظفر بها

« هناك فتحة أخرى هناك يا أستاذ .. لكنك لا تدخل منها بسم الله الرحمن الرحيم ... »

سألته خارج الموضوع كعادتي

- « وما هذا الذي تأكله ؟ »

- « جميز » - قالها وهو يضع واحدة في يدي - « إن هناك شجرة جميز هنا .. هل تأكل يا أستاذ ؟ »

- « شكراً .. أفضل أن أغتسل أولاً . »

شد شعره في جنون كأنه (توسكانيني) وقد سمع عازف يعزف لحناً نشازاً .. وصاح :

« لا يا أستاذ .. هذه الشجرة تتغذى من المقابر .. ويجب ألا تغسلها كي لا تزول حلاوة طعمها !! »

كان هذا كافياً كي أعيد له الثمرة ، وأسأله وأنا أمسح يدي عن مكان القبر . فقال وهو يشير إلى شاهد

- « هناك .. (عبد السلام شرشيرة) » .

سألته (بكر) وهو يشير إلى قبر آخر جوار الأشجار .

ـ « وهذا ؟ »

ـ « أعوذ بالله يا أستاذ .. لا نتكلم عنه ولا نكون منه .
بسم الله الرحمن الرحيم .. لا أحد في القرية يقترب منه . »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لا تسأل يا أستاذ .. اللهم الطف بنا »

وتفل في صدر جلبابه المتسخ

مددت يدي ودسست في يد الفلاح العجوز عملة ، فانطلق يركض مبتعدًا .. واستدرت إلى (بكر) الذي لم يرفع عينيه عن القبر وقلت :

ـ « هو لا يعرف .. هذه هي القصة دائمًا .. هذا القبر (تابو Taboo) تتوارثه الأجيال واكتسب مهابة لا حد لها ، لكن لو سألت نصف رجال القرية لما عرف أحدهم السبب .. »

التفت (بكر) نحوي ، وقال :

ـ « لقد فقدت وعيي فوق هذا القبر بالذات .. »

ثم نظر إلى السماء وهمس :

ـ « هل لاحظت شيئًا آخر ؟ »

ـ « لا .. ماذا تعنيه ؟ »

« السماء تعج بالطيور .. فلماذا لم يحلق طائر واحد فوق هذا القبر ؟ المكان يعج بالذباب .. هل ترى ذبابة واحدة فوق هذا القبر ؟ »

* * *

على ضوء الغروب الأرجواني ، صب لنا الشيخ (عارف) بعض الشاي في كوبين مهشمين ، وناول كلاً منا واحدًا .

ثم إنه سحب بشدة أنفاس قوية من (الجوزة) التي يحتضنها في حب كأنها امرأة .. وقال :

ـ « كل هذا الكلام الأول يا أستاذ .. لا أحد يعرف الحقيقة لكن لا أحد يجرؤ .. »

كان الشيخ (عارف) هو الوحيد الذي وجدنا الغرفة التي نقيم فيها عند مدخل المقبرة .. كان عجوزًا طيبًا له أسنان ذهبية ، ويحل رفاقه كف عن الاهتمام بأي شيء

كنا جالسين على باب الغرفة الطينية، والجوزة على حجره،
بينما النار تشتعل في حفرة بها بعض جذوع الخشب المشتعلة،
وقد تراص على حافة الحفرة فوق حجرين براد شاي كان أزرق
إنه الآن أسود لكن رائحته عطرة ذكية

سألته وأنا أرشف الشاي في شغف:

— «شيء غريب! أنت متأكد من أن شيئاً مدفوناً هنا».

— «لا أعرف أي شيء عن هذا يا أستاذ .. هذا كلام كان أبي
يسمعه من أبيه .. يقولون إنه كان ملبوساً من الجن أو عفريتاً
المهم أن الرجال حاصروه وقتلوه ودفنوه هنا .. لا بد أن
هذا كان من مائة سنة على الأقل .. المهم أننا وجدنا آباءنا
يقولون لنا إن هذا القبر محرم علينا .. أنا ربيت ولادي على
ذلك وأعتقد أنه سيورث أبناءه عليه .. بيني وبينك .. لا أعتقد
أن هناك شيئاً في القبر أصلاً».

في هذه اللحظة قال (بكر):

— «نحن نريد معرفة محتوى هذا القبر .. ما العمل؟».

راح الرجل يسحب نفساً عميقاً من الجوزة .. قرقرة في
قرقرة في قرقرة .. في النهاية أخرج من صدره العجوز
سحابة يمكن أن تغطي قرص الشمس، وقال:

— «صل على رسول الله يا أستاذ ..».

— «عليه الصلاة والسلام ..».

— «أنا لن أساعدك .. لو عرف أهل القرية بشيء كهذا
لطردت أضيافي، لكنني في الوقت نفسه لا أعتقد أن في هذا
القبر شيئاً، أي أننا لا ننتهك حرمة ميت .. لهذا يمكنني أن
أدلك إلى من يساعدك مقابل مال .. وطبعاً لا بد من
الانتظار حتى يحل الظلام».

تبادلنا النظرات، ثم صاح (بكر) في حماس:

— «أي مبلغ يطلبه».

يبتسم العجوز طويلاً، ثم ينهض مترنحاً ويتوارى خلف
الغرفة .. عندها همست لـ (بكر):

— «هذه جريمة .. جريمة في نظر القانون وأهل القرية، على
أنني أفضل بالطبع أن يفحص عنها على أن يعرف الأهالي .. لقد
عرفنا أن هناك شيئاً .. لماذا ترحل بقاءه عليك».

— «ليس قبل أن أفهم .. يسهل عليك الكلام لأنك لست
من يفقد أجزاءه ويتحول إلى ممسوخ .. أما أنا ..».

— «ليست ممسوخاً بل هي (بيروسمات)».

— «ماذا تقول؟».

- «لا عليك .. أفكر بصوت مسموع لا أكثر» .

بعد قليل ارتجت الأرض .. لا لم يكن هذا الأخ (جودزيلا Godzilla) وقد قرر أن يزور مصر، ولكنه كان .. كان رجلا يشبه باب حجرتك في كل شيء .. الحجم والملامح والعينين .. جاء وراء الشيخ (عرفة) وهو ينظر لك بريبة

- «إن (سعد) سيساعدكما .. لكن لا تنسيا عرفه» .

أدركت على الفور أن (سعد) ما هو إلا .. محترف .. كلهم يحمل ذات السمات وله ذات الهيبة . لقد عرفت الكثيرين منهم بحكم مهنتي .. يبدو أن لهم نقابة ما تشترط هذا المظهر .. فقط يتظاهر الرجلان بالبراءة بينما هما فعلا الشيء ذاته حضرت العرض .. إن التظاهر بالبراءة والخوف مجرد طريقة لرفع السعر .. وبالنسبة لهؤلاء القوم يكون الخوف من الأشباح والمسوخ نوعا من الموهبة .. على كل لنا أنفس هذا .. سيكون الأمر مأمونا مع محترف .

لكن قطعت على تفكيري رؤية النظرة في عيني (بكر)

النظرة في عيني (سعد) كذلك لم تكن مريحة .. لقد

فوجئ الرجلان ببعضهما هنا، ومن الجلي أن (بكر) عرف (سعد) .. هذا واضح .. لكن متى وأين ؟

لم أحاول أن أسأل .

دامت الجلسة ساعة أو ساعتين، حتى حل الظلام ورحنا من بعيد نرى الأضواء القروية المتناثرة .. فيما لبثت في كثافة أضواء المدينة، وهي أضواء ستبقى ثلاث ساعات أخرى ثم يسود الظلام ..

قلت لـ (بكر) وأنا أشرب كوبا آخر من الشاي :

- «نسيت أن أقول لك إنني سوف أستحق في القليل .. لو لم يك النهر وأنت في قاع ترعة لاعتبر أنك محظوظ» .

- «لست قلقا ...» .

قالها في شرود :

- «هناك ألف سبب للموت قبل هذا الموعد» .

ولم أعرف كم كان صادقا في هذه الكلمة إلا فيما بعد

بعد قليل نظر لنا الشيخ (عرفة) وقال وهو يلقي حجرا على الجوزة :

«هيا يا رجال .. لا تطيلوا بقاءكم، كنت أريد النظرة يا أستاذ فتفكر بها سريعا» .

وخرجنا إلى الظلام إلى المقبرة المظلمة أصلا .. الأغنية من كلمات (عبد الرحمن الأبنودي) .. تنبعث متقطعة من مذياع الحوش .. كان (سعد) هنا يتقدمنا وفي يده كلوب وفي يده الأخرى رفش .. أتبعه أنا ثم (بكر) يحمل رفشًا آخر

أخيرًا نقف عند القبر المشئوم

يضع (سعد) الكلوب على الأرض

يشمر عن ذراعيه ويبدأ العمل

* * *

٨ ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

صوت من قرية .

ـ « لقد انتهينا منه ! »

صوت في الظلام

ـ « لا .. إنما هو قد سجن .. وسوف يتحرر »

صوت غاضب

ـ « لن يتحرر ونحن أحياء .. »

* * *

يجب هنا أن أذكر عدة أشياء

أولاً .. كانت هناك قطرات دم جافة على كل شيء .. لم أفهم سببها .. لكن القارئ يتذكر طبعًا .. إنه الدم الذي سال من (بكر) حين سقط هناك

ثانيًا .. كان التراب مخلخلا بشدة .. خطر لي أن هناك فئران أو حشرات ما . لكن كما قلت آنفا كان هذا القبر خارجًا عن نطاق الإمكانيات البيولوجية .. باختصار كانت

للحيوانات والحشرات أذكى من أن تقترب منه، وغريزة الحيوان لا تخطئ.. هذا هو ما يسبب الذعر والتوجس كلما تنتفض القطط، أو راح الكلب يعوي بلا سبب

ثالثًا: بدا لنا أن القبر خالٍ فعلاً.. كانت هناك أحجار.. لكن لا أثر لأية بقايا عضوية أو عظام

خطر لي أن القبر لم يكن خاويًا من قبل.. وخطر لي كذلك خاطر مرعب: إن القبر خاوٍ لأن الشيء الذي كان فيه موجود في (بكر) الآن.. هل لديك تفسير آخر؟

كنت - كما تتوقع - في أسوأ حال، لأن كل الغبار المتصاعد حرك الحساسية لدي.. صار أنفي يسيل وعيناي تدمعان ولم تكن القطرات معي

توقف (سعد) عن العمل وجفف عرقه، ثم قال لي بصوته الغليظ:

- «اذهب يا أستاذ إلى الشيخ (عرف) وقل له أن يعطيك حبلاً..»

يا سلام؟ ولماذا أنا؟ لماذا ليس أنت أو (بكر)؟

هذا أيضًا لقص ما رآه (بكر).. فقد صاح في هستيريا

- «ولماذا لا أذهب أنا؟»

قال (سعد) في غلظة وعيناه تلمعان عن الشر:

- «كنا سنهلك في الحفر وأنت تساعدني.. هذا الرجل هو أضعف واحد فينا.. فليبق قليلاً..»

كان هذا مهينًا لكرامتي.. لكن كلامه منطقي.. لا جدوى لي إلا كجندي مراسلة أو صبي بقال.. فلأفعل كما قال

أخرجت قداحتي ورحت أتحسس طريقي عائدًا عبر المقبرة إلى غرفة اللحد بها

لحسن الحظ لم تكن المسافة طويلة لأن الرحلة لم تكن بهيجة كما لكم أن تتصوروا

لكن الرجل لم يكن هناك.. كانت الغرفة مفتوحة لكنه لم يكن فيها

صحت بصوت عالٍ:

- «يا شيخ (عرف)!»

تردد الصدى: (رف.. رف.. رف..)

هكذا خفضت صوتي قليلاً وعاودت النداء

هذا هو السبب في أنني لم أسمع الصرخة أو سمعتها لكني لم أتبينها وسط الصدى

صوت حشرجة .. ثم صمت رهيب يغمر المكان من جديد .

عدت أتحسس طريقي هكذا ..

هناك أرى بقعة الضوء الضعيفة التي يسببها الثقوب .. للرهبة والروعة وجمال بسيطة واحدة .. هناك رسام هولندي تخصص في هذا النوع من الإضاءة لكنني لا أذكر اسمه .. هل (فيرمير Vermeer) ؟ نعم .. هو .. هو ..

لكن .. أين ذهب (سعد) ؟ .. أراه هو (بكر) يقف وحده ويرمق الثقوب منظرًا إلى داخل القبر

دنوت منه وقد أحرقت اللافحة أنملي ، وقلت :

- « أين الرجل ؟ »

كان يرتجف كورقة .. لكنه هز رأسه في دعاء الاستسلام وقال :

- « لا بد أنه يقضي حاجته في مكان ما .. »

- « لم أجد المكان .. »

- « دعك من هذا .. ولنلق نظرة بأنفسنا .. »

لاحظت أنه مرهق وأنه يعرق بشدة .. كما لاحظت أن ثيابه لم تعد مهندمة .. القميص خارج السروال والبنطلون معفر .. لكننا نلهث قليلًا على كل حال ، فلا أعتقد أن الأناقة شيء مهم ..

دنوت مع (بكر) من القبر المفتوح وقربنا الكوب أكثر

قال لي وهو يلهث بلا انقطاع :

- « أنا أشك في هذه الصخور .. هل رأيت قبرًا محشوًا بالصخور من قبل ؟ »

- « وهل لديك مقطع ؟ »

- « لا .. »

قالها وهو يهوى بالفأس على أحد هذه الصخور فيشطره نصفين

* * *

لقد انفتح الجحيم ليصب حممه على رءوسنا

أين كنت يا (هوميروس Homer) لتصف لنا هذا المشهد ؟ أين (أبو العلاء المعري) ليقدم لزوميته ؟

إن تلك الصخور كانت حية .. كانت بيروسات مختفية تنمو تحت الغبار بصبر .. الآن يمكننا أن نفهم كيف تبدو هذه الأشياء .. لا يمكن أن تصفها بدقة مهما حاولت .. إنها متغيرة الأشكال .. لكن لها أكثر من ذراع مخاطية تخرج من هذا الموضع ، ثم تذهب في الجسد لتخرج من موضع آخر .. بسرعة مذهلة .. حركة بروتوبلازمية صاعقة تذكرك بالأميبا amoeba تحت المجهر مع فارق السرعة والحجم .. إن لها عيونًا شريرة حمراء ترمقك في جشع إنها مغطاة بتلك الأهداب الطويلة .. لكنها تستعملها بشكل أو بآخر كل ثانية

إنها تركض وترحف وتتسلق

صرخت وكنا نتراجع للوراء

- « لا تدعها تمر ! »

صاح (بكر) وهو يثب بدوره :

- « اهربوا ! اهربوا ! »

ورحنا نتهاوى على هذه الأشياء بالرفش

كان قتلها صعبًا .. الأسوأ أنك لا تعرف إن كان هذا قتلاً

أم لا .. ربما هي تتفتت لتعود .. كتلة بروتوبلازمية لن يحدث إلا أن تنقسم إلى نصفين

كانت عملية مرهقة واستغرقت وقتًا طويلاً

بعضها كان يحاول انتزاع الرفش مني ، وبعضها كان يمد مخالبه نحو سروالي .. في النهاية ترنحت وجلست على الأرض ووضعت القرص إياه تحت لساني لأنني لم أعد أتحمل أكثر .

(بكر) يواصل القتل وهو يلهث .. يبدو أن قلبه في حالة ممتازة

قال وهو يلهث ويسترد أنفاسه

- « لو رأيت هذا المشهد في فيلم مرعب لاتهمت المخرج بالمبالغة ، وغادرت القاعة ساخطًا .. »

قلت له وأنا ألهث بدوري :

- « العالم الذي أعيشه أنا لا مخرج منه إلا إلى الأبدية . »

ثم خطرت لي فكرة .. النار .. دائمًا ما تبرهن على أنها الحليف الأقوى لي في تلك العوالم الرهيبة .. هذه الأجسام لا تموت كما يبدو .. أحدهم مقلوب الآن يرمقني بعينين حمراوين في حدة ، ومن الواضح أنه سينهض في أية لحظة

- « أشعل الذبالة ! »

هكذا تناولت الكتلوب وأطفأته .. ثم بحثت عن مسحته ورحت أسكب الكيروسين فوق هذه الأشياء

صاح (بكر) في رعب :

- « هذا خطأ .. القرية كلها ستحترق وسيأتون جميعاً ! »

- « لهذا الجزء الثاني من الخطة هو أن نهرع إلى السيارة بمجرد أن تشتعل النار .. »

وأشعلت الذبالة

- « استعد .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. »

ولامست الشعلة المتناثر على الأرض بالخيوط .. ميزة الكيروسين هي أنه يعطيك فرصة .. لا ينفجر كالبنزين . إنه ذلك الخيط الذي يزحف على الأرض .. ثم ينتشر

ورأيت هياج هذه المخلوقات كلها تعوي في سيمفونية محترقة .. أو الصرصور في فرن اشتعل فجأة بعد أعوام من السكون

استدرت نحو (بكر) وصحت

« هلم .. السيارة ! »

لكنني لم أجده .. لم يكن واقفاً جواري على الإطلاق

ماذا يعني هذا ؟ هل هذا واحد آخر قد عض التراب كما يقول الإنجليز ؟

بحثت وبحثت .. النار ترتفع .. السماء بدأت تضيء بذلك الوهج البرتقالي .. لابد أن القرية كلها تراه الآن .. لابد أنهم يفكرون بدارهم .. كل منهم يضع الجلباب فوق السروال ذي الفتحة ويخرج من الدار

لابد من أن أرحل .. بل شتى المتاعب لتتكرر لو بقيت هنا

رحت أمشي مسرعاً بين شواهد القبور .. الإضاءة تسمح لي بأن أعرف أين أنا

القبر الذي صرت أسعد كلما رأيته كأنه صديق قديم .. قبر المرحوم (عبد السلام أحمد شرشيرة) - توفي يوم 11 شوال 1382 هجرية .. هذه هي الفرجة بين الأشجار

تسلقت السور ولابد أنني بخلق كطفل .. إن النيتروجلسرين بدأ في عمله حتى هذه اللحظة لكن من يضمن لي أن .. ؟!

أجتاز الفرجة الضيقة

هذه هي سيارتي واقفة كالشبح في الظلام حيث تركتها
ثمة كلب أسود يجلس على (الكبوت) ويرمقني في شك
لم أبال به وركبتها وأغلقت الباب .. شعرت ببعض الراحة
وأنا أشم رائحتها المميزة وأشعر بدفئها .. برغم علمي التام
أنني لن أستطيع أن أشغل المحرك .. لماذا؟ لأن القصة
دائمًا هكذا .. أنت في قصة مرعبة ؟

كرر كرر كرر !

ألم أقل لكم ؟ الكلب أصيب بالهلع فجرى مبتعدًا

أنظر للسماء فأرى الوهج البرتقالي من خلف جذوع
الأشجار .. لابد أن الحريق يقترب الآن .

كرر كرر كرر !

– "يجب أن (تكارك) !" قالها لي الأسطى (خميس)
الميكانيكي يومًا ما .. ولم أفهم هذا الفعل العجيب
كارك مكاركة فهو مكارك .. لكن الأمر يستحق المحاولة
فلأكارك .

– "لا تبالغ حتى لا تشرق السيارة" .

قالها لي الأسطى (عرفة) يومًا ما .. ولم أفهم كيف
تشرق العربة ، لكن النصيحة جديرة باتباعها .. لو شرقت
السيارة الآن لكانت كارثة

كرو كرو كرو .. فروووووووووم !

الحمد لله ! شكرًا لكل الأسطوات الذين خربوا بيتي
ونهبوني لكنهم صححوا علمهم

لا وقت للانتظار .. أتحرك .. السيارة جامدة كالصخر
باردة كقلب حبيبتك .. لكن يجب أن تكون

وانطلقت أعبر هذه المسافة الوعرة .. كنت قد عرفت طريقًا
أسهل لا يمر بالقرية .. لا تنس أن المدافن تكون خارج القرية
لا ضرورة لعبور طرقاتها إذن كما فعلت لحظة مجيئي .. لقد
صرت أكثر حكمة ..

لم أكتشف الصحراء إلا حين رأيت معالم الطريق الزراعي

هل تخلصت من (بكر) ؟

لا .. لم أقل .. هو من تخلى عني .. والسبب لا أعرفه

لم يكن الموقف ليسمح بالتفاصيل أو التفكير حتى يحاصرني أهل القرية

أنا الآن أحتاج إلى قدر كبير جداً من الحظ كي لا ألقى حتفي على الطريق .. النوم يداعب جفني مع إرهاق وتوتر عصبي شديدين ..

طبعاً تعرفون أنني لم أمت ما دمت أحدثكم الآن لنستكمل القصة .

* * *

٩ ـ مقدمة لابد منها لفهم القصة ..

وحيداً في الشرفة في الخامسة صباحاً أرمق الشارع الخالي ، وأتحسس كوب الشاي في نهم

لا صوت إلا صوت حياة بطيئة بدأت تدب .. لم يكن هناك باعة جائلون في شوارعنا ، ولكنهم كانوا .. لا شيء يشعرك بالبكور مثل هؤلاء القوم البسطاء يخرجون مع الفجر ، ولديهم إيمان بعدالة توزيع الأرزاق وأن من خلقهم لن ينساهم .

يختلف هذا النهار المبتسم عن ليالي الشيء

بالتأكيد يختلف

كنت قد كونت فكرة لا بأس بها عن الموقف .. لسبب لا أعرفه عزف (بكر) عن فتح هذا القبر في تلك القرية .. هذا القبر كان يحوي بقايا كاهن شيخ عاش في القرية منذ مئة عام أو أكثر ، فأيقظه الدم وتكاثف بشكل ما في جسد (بكر) .. وما حدث لـ (بكر) إلا وسيلة من وسائل التكاثر كأي فطر أو نبات .. يبدو أن أسنان (بكر) صارت بذوراً تنمو بذورها لتخرج منها كائنات أخرى

ولكن أين (بكر) من كل هذا ؟

هنا دق جرس الهاتف فاتجهت متوجساً .. مكالمات السادسة صباحاً لا تعنى إلا الموت أو الموت أو الموت

- « آلو ؟ »

هنا جاء صوت مرتعش يسأل فى ريبة

- « د. (رفعت) .. هل (بكر) عندك ؟ »

إنها الزوجة إذن .. و(بكر) لم يعد كما توقعت .. لابد أنها وجدت رقم هاتفى فى دفتر الأرقام

قلت لها فى كياسة .

- « لا يا سيدتى .. لابد أنه مع أصدقائه .. »

عادت تسألنى بالشك المميز لها :

- « لم يقض قط ليلة خارج البيت إلا حين ذهب لتلك القرية .. هل أنت متأكد من أنه ليس عندك ؟ »

قلت فى شىء من الغيظ

- « لو أردت فلتفتشى شقتى تحت أمرك .. »

هذه كارثة أخرى .. أن الوحيد الذى يعرف مكانه الأخير .. لو طالت غيبته لكان علىّ أن أبلغ الشرطة .. وعندها سيضحكون كثيراً وهم يسمعون قصتى عن نبش القبر وحرق محتوياته للخلاص من الفيروسات

هكذا وضعت السماعة مهموماً وبدأت تحضير الإفطار .. لدى طبق فول فى الثلاجة يعود إلى العصر الآشورى .. لا يوجد ملح ؟ أين هو الزيت .. لا يوجد ؟ أين ذهبت (البصل)

رنين الهاتف من جديد

- « د. (رفعت) ! إن الدخان يأتى من الشقة المجاورة .. »

صمت فى حيرة .

- « دخان ؟ هل أنت متأكدة ؟ »

- « كنت أطبخ وأنا أشم رائحة شياط .. ثم خرجت لأتشمم فوجدت الدخان يخرج من تحت الباب .. إن الشقة تحترق ! »

كنت متأكداً من أن هذه المرأة تملك أعظم أنف فى التاريخ .. هذا بسبب طبيعتها المتشككة

- « إذن أطلبى المطافئ حالاً ؟ »

- « لا أعرف كيف .. أرجو أن تتحمل هذا أنت ! إن أعصابى .. »

قلت لها قبل أن أغلق السماعة

- « سآتى حالاً .. لقد أقنعتنى إلى أن هذا الدخان يعنى أن زوجك بخير !! »

ووصفت السيدة ... لسبب ما اعتبرت هذه المرأة أنني وكيل بوجهها ... فلن أستغرب أن تطلب مني إصلاح صنبور المطبخ أو تغيير أنبوب البوتاجاز ... لا أتوهب على كل حال ... وطلبت المطافي ... أعطيتهم العنوان من الذاكرة.

وفي الطريق إلى داره، كنت أفكر ... لقد تماثل من الفرار والعودة ... لا أعرف كيف تكيفه القطط ... ومن المفهوم أنه عاد إلى شقة جحره ليتخلص من المزيد من هذه البيروسف ... لا بد أنها صارت مرعبة بعد تلك الفترة ... كي لا يجد أي آخر هل مهجع، فلجأ إليه.

عندما وصلت للبناية وجدت عربة المطافئ هناك، وقد احتشد عدد لا بأس به ممن لا عمل لهم ... يتوقون من لا شيء ويتلهفون في الأثير بعد هذا.

صعدت في الدرج لأجد المشهد المعتاد ... الماء يغرق الدرج والزحام والدخان.

باب الشقة مهشم ... ومن الداخل يتصاعد الدخان ... لكن الجزء الأمامي من الموضوع قد انتهى كما توقعت.

لكن مسعف لم يهتم بي أحد وأنا أشق طريقي وسط الفوضى إلى المطبخ ... هناك كنت أتوقع سحبة معتمة وعلى الأرض تكومت أجسام متفحمة لا تعرف كنهها.

كل ما توقعته تم حرفيًا.

الآن حان وقت الرحيل قبل أية أسئلة فضولية ... أسئلة من الشرطة أو من الزوجة.

على الأقل أنا مطمئن إلى أنها بخير.

* * *

في العاشرة مساء جاءني هاتف منه.

صحت في الهاتف وأنا أجفف عرقي:

- "أين ذهبت يا أحمق أمس؟ لم أستطع الانتظار حتى يطير عقلي بأول فأس ... لقد توقعت أنك في أسوأ لحظة ممكنة".

قال بصوت بارد لا حياة فيه:

- "لقد تذكرت كل شيء ... وأعتقد أنك تصرفت بشكل صائب ... لكني لا أطلبك كي أطمئن عليك ... كنا نريد لقاءك حالاً".

كنت لم أتناول عشائي بعد ... إن الطعام بعد العاشرة مساء عادة مصرية أمارسها أحيانًا ... لهذا حاولت التملص منه لكنه كان مصرًا ... إذن أين نلتقي يا سيدي؟

حدد لي مكانًا عجيبًا بحق .. في حي (...) القريب من داره هناك شارع يدعى (...) في نهايته يوجد مصنع ثلج مهجور لكن بابه الخلفي مفتوح .. يمكن أن نلتقي هناك بعد ساعة ؟

قلت له في غيظ:

- « هل ستحضر البضاعة معك ؟ »

- « أية بضاعة ؟ »

- « الأمر يبدو كما لو كنت ستشتري شحنة مخدرات .. »

ثم يضحك .. لقد صار عصبيًا في الفترة الأخيرة .. فقد قال لي:

- « لا تقلق .. السبب معي لا أرغب في أن يراني أحد معي .. وتعال في الموعد .. »

هكذا وضعت السماعة شاردًا

طلبه كي يوصيني ألا أذهب .. لكني لسبب ما قررت أنه اللقاء الأخير بيننا .. وعلى الأرجح هو اللقاء الذي سيفسر لي كل شيء .. من أنا كي أرفض ؟ منذ قضيت ليلتي جوار تابوت الكونت (دراكولا) كي أعرف .. وحتى هذه اللحظة كانت الرغبة في اكتساب خبرة جديدة هي الشيطان الذي يحركني

ثم من قال إنه سيؤذيني ؟

إنه رجل مصدوم وخائف .. أضف لهذا أن تلك اللقاءات في المصانع المهجورة لا يحدث فيها شيء إلا في السينما .. لقد أفسدت الأفلام عقلي دون شك

وهكذا وجدت نفسي أركب سيارتي وأتجه إلى العنوان المذكور ..

كنت قد صدقت حدسي لأنني عرفت أن الظلام سيكون دامسًا

بالفعل كانت المنطقة رهيبة .. الظلام دامس .. مصانع ضخمة تلعب بالنسبة لنا نفس الدور المخيف الذي تلعبه المستنقعات في القصص الغربية .. كلاب ضالة تنبح

لهذا حرصت على أن أقف بسيارتي بالضبط أمام باب المصنع الخلفي كي لا ألوث حذائي، أو يطاردني كلب ما

ترجلت .. ودلفت من الباب الذي يصلح بالفعل لأحد أفلام المافيا .. المصنع عبارة عن ساحة واسعة مظلمة أمامي في هذه الأماكن يتم القتل في أفلام العنف وتوزيع الشخصية في الفتح .. لن ألبث أن أرى (جاك الأسود) أو (مارشيالو الأعمى) حاملًا بندقيته ليطلق في الأسرة غاضبة

لكن لم يحدث شيء من هذا ..

كانت هناك (بيارات) عميقة في الأرض.. طبعًا.. مصنع الثلج يجب أن يكون على اتصال مباشر بما تحت الأرض أو شبكة المجاري.. فلأكن أكثر حذرًا.

مشيت بضع خطوات ثم توقفت.

توقفت لأنني لم أرغب في أن ألمس الجثة طبعًا

* * *

كان رجلاً في الخمسين من عمره، تبدو عليه أمارات النعمة والثراء فيما لم يكف عن لمسه.. وكانت عيناه المفتوحتان تنظران للسقف في رعب.. لكني عجزت عن تبين أية جروح في هذا الجسد.. ليس هذا سهلاً وسط هذا الظلام.

هل رأيته من قبل؟ إن الموت يشوه الوجوه لكنني متأكد من أنني لا أعرفه..

هذا هو الكمين الآن.. سوف يصيح المكان، ويصيح ضابط ما: استسلم يا (برعي).. المكان محاصر من كل جهة.. لماذا قتلته؟

للمرة الثالثة كنت مخطئًا.. فلم يحدث شيء من هذا

فقط سمعت صوت (بكر) يتكلم

رفعت عيني فوجدته واقفًا مستندًا إلى عمود خشبي وقد دس يديه في جيبه وراح يتكلم كأنما هو يحلم.

- «(شكري أبو زيد).. مدير لإحدى شركات التأمين سيئة السمعة. وهو بالمناسبة رئيسي السابق».

ثم اتجه نحوي متمهلاً للحظات.. وقال:

- «لا تخف.. أنت لست عدوًا لي.. سأحكي لك القصة من البداية..».

هتفت في انبهار:

- «أنت على حق.. لقد كنت تخفي عني الحقائق!».

- «أية حقائق؟ لم أكن أذكر أي شيء عن هذه القصة حتى البارحة.. ولكن لا تقاطعني».

* * *

لأسباب يطول شرحها يشعر المرء في سن معينة بأنه لم يعش حياته وأنه بحاجة إلى مال وفير كي يعيش.. كنت أنا محاسبًا في شركة التأمين، وكان (شكري) هو المدير

والأسباب يطول شرحها لكن النتيجة معروفة في وقت واحد
أن ضعف الشخصية يصعب أن تقاوم إغراءه حقيقيًا. لقد
انحرفت. لم يكن بوسعه أن يعمل وحده، وكنت أنا كلا
منه وأبرع. هكذا استطعت تحقيق الكثير من حسابات
العملاء. تحايلنا على الدفع للمستحقين. تلاعبت في كل
شيء وقع تحت يدي. وبدأت أضع يدي على مال... مال
طائل لا يلتزمه البطال والجرار والفوارغ. وعرفت قدماي
الطريق إلى المصرف.

لكن الفساد له رائحة تشبه رائحة المجاري التي تغمر
هذا الشارع. سرعان ما بدأ التلاعب في الدفاتر يفصح عن
وجهه. هنا قرر (شكري) أن ينصب اللعبة الشهيرة
بإلقاء بعض الجثث للكلاب.

تم فصلي بقسوة من الشركة، وبدا واضحًا أن الأمور
ستتطور. سيدخل البوليس في اللعبة. هكذا في سن
الخامسة والأربعين وجدتني بلا عمل، مهددًا بالسجن في
أية لحظة. لم أكن أخشى السجن لكني كنت أخشى لحظة
أن تعرف تلك المحبوبة - زوجتي - الحقيقة. هي التي
تثق في صورتها في المرآة. سوف تنهار حتمًا. والطفلة
التي لن تجد عريسًا بعد عشر سنوات؟

لم أكن قد غادرت الشركة خالي الوفاض. فلقد نجحت
في أن أحمل معي أوراقًا مهمة. أوراق تثبت
أن (شكري) متورط بالكامل في هذه القصة. وهكذا
قررت أن ألعب اللعبة كاملة. اتصلت به وقلت له إنني لن
أذهب إلى السجن وحدي. إن لي عامًا لا أفعل شيئًا سوى
البطالة، وأنا مهدد طيلة الوقت بالسجن. هذه لعبة
لاثنين. وعليه أن يفعل المستحيل لإنقاذي.

هنا بدأ الجزء السخيف في القصة. الجزء الذي يثبت لك
كم أنا أحمق. لقد طلب مني أن ألقاه في عربته لنتكلم بعيدًا
عن العيون. ووعدني بأن يقدم لي ما يرضيني. سيفعل
أي شيء عدا إعادتي للعمل لأنه لم يعد بوسعه الآن.

كانت زوجتي ليس لديها أي ثقة في الناس. لا
تمنحني ثقة بالناس بل أتطلع في الثقة بنفسي. وهكذا
- بحماقة - ذهبت إلى داره الريفية وقضيت يومي هناك
كان يحاول إقناعي بإعادة أية أوراق تهدده، لكني كنت
متمسكًا بهذه الورقة الأخيرة.

كنت سعيدًا فلم ألحظ عدد الرجال الذي يتزايد في المكان
حيث جلسنا. رجال يبدو عليهم الشر. لم ألحظ النظرات
الجانبية التي يتبادلونها. أوامر صامتة لكل منهم

فيما بعد عرفت أنه استأجر بعض مخبري لتتبعني مهمة هؤلاء بسيطة جداً .. إقناعي بإرشادهم إلى مكان الأوراق . كلا .. ليس قتلي لأن هذا سيجلب الوبال على رأسه ..

حين تنبهت إلى المطاردة وإلى أنني محاصر بالفعل، كان رد فعلي عنيفاً .. وثبت وضربت أحد الرجال، وبدلاً من أن أهدئ هذا أعصابه فأغمد سكينه في صدري .. لكني تحاملت على نفسي ورحت أركض فاراً منهم

حتى أوصلني حظي العاثر إلى ذلك النهر المجهول وهنا كف الرجال عن مطاردتي .. لقد كانوا يعرفون

لابد أنني نزفت كثيراً هناك .. ولابد أن هذا سبب ذلك الشيء العجيب الذي أشعر به في جسدي الآن ..

أما ما حدث حين أفقت من إغمائي فهو أنني نسيت تماماً كل شيء عن (شكري) والمطاردة والرجال .. لم يكن هناك جرح في صدري .. كل شيء على ما يرام

هكذا عدت من القرية فلم يلحظ أحد .. ووجدت أن لدي حساب في المصرف فرحت أنفق منه

أنت تعرف ما حدث بعد هذا .. لقد استعادني ذلك (الشيء) التاريخ .. في أول هذا اليوم الذي جئت فيه إلى القرية هنا بدأت الذكرى الغامضة تعبث في نفسي .. واكتمل كل شيء برؤية (سعد) هذا .. لقد كان من بين الرجال الذين استأجرهم (شكري) !

* * *

١٠- خاتمة (ولكن أين القصة ذاتها ؟)

وأنهى (بكر) قصته .

حين أرسلك (سعد) لتحضر حبلاً كان ينوي الانفراد بي .. ويبدو أنه كان سيتخلص مني - باعتباري شاهدًا خطرًا - ثم يأتي دورك . رأيته يرفع الرفش وعيناه تتقدان نارًا

هنا تم بعد جسدي ملكي .. لقد خرجت تلك الخيوط المخيفة من أنفي وعيني وفمي ، وبرزت مشهدًا كابوسيًا تم فيه تمزيق ذلك الوغد إربًا في ثوانٍ .. لقد تناثر اللحم مفرومًا في دائرة قطرها متران .. ثم عاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي

هنا رحت أحاول جاهدًا أن أستعيد روحي .. واعتقد أنني نجحت في هذا .. وبحركات ميكانيكية رحت أهيل التراب فوق هذه البقايا

لقد دافع الشيء عني لأنه بهذا يدافع عن نفسه .. التسرع بدافع من القلق الذي يوحي فيه صغاره

ثم جاءت لحظة هبوب تلك الكائنات .. في هذه اللحظة شعرت بأنني لا أتحمل .. كل ذرة في كياني تنتفض .. كنت أنت مشغولاً فلم تر الخيوط تخرج من أنفي تتحسس هنا وهناك في جنون ..

هكذا قررت الفرار .. تركتك وفررت .

تسأل كيف استطعت العودة من تلك القرية ؟ بسيارتك طبعًا ! لقد تطورت كثيرًا جدًا .. صرت أتصرف ككتلة بروتوبلازم عاقلة .. لا أعرف كيف ولا متى وجدت نفسي ألتصق بقاع السيارة .. لكني فعلتها .. وعدت أنت بي غير عالم أنني أتعلق بسيارتك من أسفل

في الصباح الباكر عدت لداري . وقررت أن أهاجم تلك الفيروسات الموجودة في المطبخ .. كنت أطلقت هذه الأشياء . ولقد رغبت في أن أتخلص منها ثم أقتل نفسي .. لا أعرف حلاً آخر .

كانت عملية الحرق شنيعة ، ولقد راح ذلك الشيء في داخلي يتلوى بعنف .. وفي هذه اللحظة عرفت أنه سيقتلني بالفعل .. لم أعد راغبًا في التخلص منه بل راغب في التخلص من نفسي ليهرب هو ! إنني مجرد قشرة رقيقة تحميه من العالم الخارجي وسرعان ما سوف يمزق تلك القشرة ويتحرر

لكني عقدت معه اتفاقًا صغيرًا .. أعطاني فرصة واحدة كي أتكلم معك عن حياتي ، وكيلا يفتك بي .. ولقد وافق على أن ينتظر وأن يساعدني كذلك

وهكذا اتصلت بـ (شكري) كما فعلت معك .. طلبت أن ألقاه هنا وحده إذا كان يريد تلك الأوراق .. طبعًا جاء لكنه كان مسلحًا وقد شهر سلاحه هذا من البداية .. وكان هناك رجل آخر يذكرك بالحرس الشخصيين ، لكنني لم أبال بالرجلين .. هجمت .. اخترقت طلقة صدري وأخرى رأسي .. لكنهم لا يعرفون أن الشيء يعرف كيف يعالج أي جرح في لحظة حدوثه .. سرعان ما التأمت جروحي ، وكان قضائي على الرجلين يشبه ما حدث مع (سعد) ليلة أمس ، وإن كان الشيء قد ترك الجثث سليمة هذه المرة ..

الآن أنا أشعر براحة .. ولقد تهيأت لأن ينتهي دوري ..

* * *

كانت القصة معقدة بالفعل .. فيما بعد سأحاول استيعابها وفهمها .. لدي أسئلة كثيرة لكن أهمها هو :

ـ « هل تعني أن داخلك .. ما يملؤك من الداخل الآن هو الشيء ؟ »

ـ « نعم .. كل خلية وكل تجويف من جسدي .. »

ـ « وتلك الفيروسات التي تتساقط منه طيلة الوقت ؟ هل ستنمو لتصير مثله ؟ »

ـ « نعم .. ما يبقى منها حيًا ولم يحترق .. إن أكثر ما يلهب حماس هذه الكائنات ويجعلها تنمو بسرعة يمكنك رؤيتها ، هو شعورها بالرعب البشري .. التوتر البشري .. الخوف .. القلق .. الشك .. لا أدري إن كان تحليلي دقيقًا أم لا ، لكنني أعتقد أن الرعب الذي شعرت به لحظة المطاردة في تلك الليلة هو الشيء الذي جعل هذه الخلايا تتحرك .. من يدري ؟ ربما تلاقى نداءً صامتًا كي تسقط في تلك اللحظة بالذات ! »

هنا بدا لي هذا منطقيًا .. الفأر المذعور الذي وضعه د. (حسين) جوار الفيروس في تلك الليلة .. فقط استدار ليصنع بعض القهوة ثم عاد ليجد أن الفأر مات ، والمنضدة مغطاة بالفيروس .. جو بيت (بكر) مع تلك الزوجة القلقة المذعورة .. هل يوجد جو أكثر ملاءمة للنمو كان يعمر بالخوف ؟

صاح وهو ينظر إلى السقف :

ـ « انتهى الأمر ! اعتن بأسرتي يا دكتور (رفعت) !! »

ـ « عم تتكلم أيها الأحمق ؟ »

كان الظلام شديدًا .. ضوء الكشاف لم يحسن الأمور كثيرًا .. لهذا لم أتبين تفاصيل ذلك المشهد الشنيع .. لكنني

تخيلته في ذهني .. (بكر) يمزق القشرة الرقيقة والشيء يتحرر .. شرنقة آدمية عملاقة تخرج منها فراشة مخيفة .. لن أطيل الوصف لأنني أمقت الرعب المعوي ، لكن كيف تصف رجلاً يمزق جسده كي يتحرر كائن بروتوبلازمي مكسو بالأهداب ، ما لم تصف ذلك فعلاً ؟

صحت فيه :

- « انتظر يا أحمق ! إن القلب قد ..... »

- « فات الأوان ... »

قالها ومزق آخر ما كان يرمز له كبشري ، وفي اللحظة التالية رأيت الشيء للمرة الأولى كاملاً .. يصعب أن أصفه لأنه أقرب إلى كتلة هلامية عملاقة بارتفاع قامة الإنسان ، ومغطاة بالكامل بتلك الأهداب .. إنه أقرب إلى واحد عملاق من تلك الفيروسات التي كنا نقتلها عند المقبرة ..

وقبل أن أفهم ما يحدث كان قد انساب بنعومة لا تصدق .. إلى أين ؟

إلى تلك (البالوعات) المنتشرة في الأرضية .. لقد غاب في شبكة المجاري ببساطة ..

لم أصدق أن هذا حدث إلا بعد ربع ساعة ظللت فيها واقفًا أرمق المشهد بغباء ، وحين ثبت إلى رشدي عرفت للمرة الأولى أنني وحدي .. وأن هناك الكثير من الكلام وجثتين ...

يجب أن أرحل من هنا حالاً ..

* * *

قالت الزوجة وهي تقدم لي قدح القهوة :

- « سيجدونه .. لا أعرف كيف لكنني أشعر أنه حي ... »

كنت أنا أملك الإجابة الكاملة .. لكني بالطبع لن أستطيع الكلام .. هل أخبرها أن زوجها كان قشرة ، وأن جوهره الحقيقي موجود الآن في شبكة المجاري ؟

طبعًا لا مجال لهذا هنا .. دعها تعش في وهم الزوجة المخلصة التي تنتظر زوجها لكنه سيعود ..

ومن قال إنه لن يعود ؟ الشيء موجود تحت هذه المدينة .. ويوم يحدث انسداد في شبكة المجاري ، فربما يكون هو أول ما يجده عامل غافل .. هل يخرج يومًا ما من مغطس منزلي ؟

كل هذه أسئلة تثير الذعر .. لكن لا جدوى منها ..

لقد كان الشيء موجودًا من دهر ، ولا يوجد ما يمنع أن يظل كذلك ..

قالت لي الزوجة وهي تحك شعرها :

- « أحيانًا أشعر أن الرعب سيطير صوابي - قلق .. »

- « هل تضايقك الأعراض المهيلة التي تعانيها بانتظام ؟ »

- « نعم .. نعم .. »

سمعت صوت طفلة في الصالة ، فصاحت الأم تناديها أن (سلمي على عمو) ..

كانت هذه (دينا) .. الأب كان وسيمًا والأم - برغم القلق الذي شوه ملامحها - لا تخلو من جمال ذابل ، فهذا كانت الطفلة ذات الثامنة دمية حقيقية ..

دخلت (دينا) حاملة قصة أطفال للتلوين ، وكتبًا ورقًا .. ونظرت لي بحذر ، ثم همست بصوت مسموع لأمها أن - وش .. وش .. وش ..

صاحت الأم في عصبية :

- « الهمس عيب .. تكلمي بصوت عالٍ .. »

- « أريد كتابًا آخر .. هذا قد نفد .. »

- « ليكن .. سأبحث لك عن واحد .. »

ثم وضعت يدها على كتف الطفلة وأشارت إلى أذنها وقالت :

- « أعتقد أنها مصابة بعدوى في أذنيها .. هل تفهم في أمراض الأذن يا دكتور ؟ »

وضعت القدح وابتسمت .. يصعب على من يجلس مع طبيب ألا يبحث عن أي شيء في جسده أو جسد طفله ليسأل عنه ..

- « في الحقيقة لا .. لكن بوسعي أن ألقي نظرة .. »

دنت مني (دينا) ورفعت - كانت مذعورة متشككة .. هذا طبيعي لأن العصاب ينتقل كأي مرض معد آخر ..

أبعدت خصلات الشعر الأحمر الناعمة ورفعت المنظار ..

من ثقب كل أذن رأيت تلك الخيوط الزرقاء الشفافة .. قصيرة جدًا لكنها موجودة ....

وارتجفت ..

لقد انتقل الشيء إلى أشياء جديدة ، وأشخاص جديدين .. لكنني نسيت تمامًا أن لـ (بكر) زوجة وابنة .. فمن أحمق بالتقاط هذه الخيوط المريعة منهما ؟ هذه ضربة تحت الحزام لكنها برغم هذا عادلة .. حين تنسى العدو الواقف خلفك فهذا لا يعني أنه غير موجود .. هذا خطؤك أنت لا خطأ العدو ..

غادرت الشقة لا أعرف أين الباب ، ولا كيف كانت قدمي تنثني أثناء المشي ..

ماذا أفعل ؟ ماذا أقول ؟

هل أنصح بإعدام الطفلة والأم؟ عسير أن أشرح لهما القصة كاملة .. عسير أن أشرح لأي مخلوق ..

سأطلب رأي أحد أطباء الأنف والأذن وأدعو الله أن أكون أحمق .. وأن تكون هذه مجرد عدوى فطرية ..

لقد ازداد عبء ما أحمله على كاهلي من أسرار حتى صرت مرهقًا فعلاً ....

كانت لي قصة أخرى مع الشيء أو بقايا الشيء .. ربما أحكيها لو طال بي الأجل، لكن - بالنسبة للحظة الحاضرة - أعتقد أننا اكتفينا من الفطريات والفيروسات .. فلنتوقف هنا .. أرجوكم أن نتوقف هنا ..

كان صندوق (باندورا) ينتظرني ..

من يفتح صندوق (باندورا) يدفع الثمن غاليًا .. لكن كل الدلائل تقول إن هناك من فتحه ..

ولكن هذه قصة أخرى ....

د. رفعت إسماعيل

القاهرة